الأسرار البلاغية

في

سورة يس

إعداد

د / مرفت فرغلي محمود عبد الحافظ

مدرس البلاغة والنقد بكلية البنات الإسلامية بأسيوط

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد :

فإن القرآن الكريم معجزة الله الخالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وقد أدرك علماء المسلمين أهميته العظمى ، ومكانته الكبرى فانبرى له في كل وقت رجال أفنوا أعمارهم في دراسته والبحث فيما اشتمل عليه من علوم شرعية أو لغوية أو علمية .

وقد احتوى كتاب الله . سبحانه وتعالى . بلاغة وفصاحة هي من أسرار إعجازه ، قال تعالى :﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ هود آية(١)، نزل على أمراء البيان وأرباب الفصاحة والبلاغة فأعجزهم عن أن يأتوا بمثله فقال تعالى:﴿لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾الإسراء آية (٨٨).

وهذا بحث في البلاغة القرآنية بعنوان :

(الأسرار البلاغية في سورة يس)

وهو بحث يقوم على جمع ودراسة المسائل البلاغية التي احتوت عليها السورة الكريمة .

وقد جاء البحث في مقدمة ، وتمهيد ، وخمسة محاور ، وخاتمة.

المقدمة:ذكرت فيها موضوع البحث ، وسبب اختياري لهذا الموضوع ، ومنهج البحث .

التمهيد : ذكرت فيه التعريف بالسورة من حيث أسماء السورة ، ومكان نزولها ، وعدد آياتها ، وكلماتها ، ومناسبة السورة لما قبلها وبعدها ، وأغراض السورة ، وأهم مقاصدها .

* **المحاور التي دارت عليها السورة الكريمة .**

ـ **المحور الأول** : أسرار التعبير البلاغي في الآيات التي تتحدث عن إثبات

الرسالة من آية (١) إلى آية (١٢) .

— **المحور الثاني:** أسرار التعبير البلاغي في الآيات التي تتحدث عن أصحاب القرية والمرسلين من آية (١٣) إلى آية (٢٩) .

— **المحور الثالث:** أسرار التعبير البلاغي في الآيات الكونية من آية (٣٠) إلى آية (٤٦) .

— **المحور الرابع:** أسرار التعبير البلاغي في الآيات التي تتحدث عن جحيم أهل النار، ونعيم أهل الجنة من آية (٤٧) إلى آية (٦٨) .

— **المحور الخامس:** أسرار التعبير البلاغي في الآيات التي تتحدث عن النبي ﷺ وموقفه من الشعر من آية (٦٩) إلى آية (٨٣) .

وفي كل محور من المحاور بدأت بعرض الآيات التي تدور حول هذا المحور، ثم بعرض معاني المفردات ، ثم توضيح الأساليب البلاغية الموجودة في الآيات ثم ذكرت تعقيباً تحدثت فيه عن الإعجاز البلاغي للفواصل ، ولم أقتصر في بحثي على كتب البلاغة ، ولكن اعتمدت على كتب الإعجاز القرآني التي تبحث عن مدى ملائمة الآيات للغرض الذي سيقت من أجله ، والعديد من كتب التفسير التي اهتمت بالنواحي البلاغية .

والله أسأل أن أكون قد وفقت في هذا العمل ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ هود آية (٨٨) .

التمهيد

أولا : أسماء السورة :

قد يكون للسورة اسم واحد، وقد يكون لها اسمان أو أكثر، وسورة يس من السور التي كان لها عدة أسماء تدل على فضلها وعظيم مكانتها وهي:

١ــ يس : قيل معناه يا إنسان ، والصحيح أن يس هو حرف من حروف التهجي كسائر أوائل السور :

ياء : حرف النداء ، ويستعمل في البعيد ، وإذا استعمل في الله نحو يا رب فتنبيه للداعي أنه بعيد من عون الله وتوفيقه[١].

وسميت هذه السورة يس بمسمى الحرفين الواقعين في أولها في رسم المصحف ؛ لأنها انفردت بهما فكانا مميزين لها عن بقية السور ، فصار منطوقهما علماً عليها .

وكذلك ورد اسمها عن النبي ﷺ ، وبهذا الاسم عنون البخاري والترمذي في كتابي التفسير[٢] .

٢ــ قلب القرآن أو (القلب): ويعد هذا أحد أسمائها لما ورد من حديث النبي ﷺ (إن لكل شيء قلبا وقلب القرآن يس)[٣] .

وقيل: لعل الإشارة النبوية في تسمية هذه السورة قلباً ، وقلب كل شيء لبه وأصله الذي ما سواه ، إما من مقدماته أو متمماته كما في تسمية سورة الفاتحة بأم القرآن من أن المقصود من إرسال الرسل

---

(١) مفردات غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ج١ ص٥٥٤ ط: دار المعرفة ، بيروت . لبنان .

(٢) التحرير والتنوير ٢٢ /٣٤١ .

(٣) فتح القدير للشوكاني: ٣٥٨/٤، والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي: ٣٧/٧ ، قال هذا غريب لا نعرفه إلا من حيث حميد ابن عبد الرحمن ، وهارون أبو محمد شيخ مجهول ــ سنن الترمذي ٢٣٧/٤ ، ط : دار الفكر العربي بيروت .

وإنزال الكتب إرشاد العباد إلى غاياتهم الكمالية في الميعاد ، وذلك بالتحقق والتخلق المذكورين هنالك ، وهو المعبر عنه بسلوك الصراط المستقيم ، ومدار السورة الكريمة على بيان ذلك أتم بيان[١] .

٣ــ المعمة والدافعة والقاضية: لأنها تعم صاحبها خير الدارين ، والدافعة والقاضية تدفع عنه كل سوء وتقضي له كل حاجة [٢].

٤ــ سورة حبيب النجار: لاشتمالها على قصته[٣].

قال صاحب التحرير والتنوير :" ورأيت مصحفاً مشرقياً نسخ سنة ١٠٧٨ أحسبه في بلاد العجم عنونها "سورة حبيب النجار" وهو صاحب القصة ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ كما يأتي،وهذه تسمية غريبة لا نعرف لها سنداً ولم يخالف ناسخ ذلك المصحف في أسماء السور ما هو معروف إلا في هذه السورة وفي سورة "التين"عنوانها" سورة الزيتون"[٤].

ثانياً : مكان نزولها وعدد آياتها وكلماتها :

١ــ مكان نزولها :

سورة يس من السور المكية عند جمهور العلماء ، لكونها تشتمل على ضوابط السور المكية التي اتفق المفسرون عليها ، وذلك أن محاورها دارت حول إثبات الرسالة ، والوحي والوحدانية ، والقدرة ، وتحدثت عن الأمم السالفة في الأزمان الغابرة ، وإبرازها للمساجلات والمحاورات بين النبي ﷺ ــ وبين المشركين وتتجسد هذه الحقيقة في أكثر أسباب النزول ... كما أن أسلوب الخطاب فيها يتضمن الترغيب

---

(١) روح المعاني للألوسي : ٢٢/٣١١ .

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام البيضاوي : ٢/٢٧٩ ، وفتح القدير : ٤/٣٥٨ .

(٣) بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي : ١/٣٩٠ .

(٤) التحرير والتنوير ٢٢ /٣٤١ .

والترهيب في الجنة والنار والبعث والحساب والأمور الغيبية الأخرى ، بيد أن الخلاف وقع في آية أو آيتين منها ، ومع هذا فالإجماع على أنها مكية . إلا أن فرقة قالت : إن قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ يس (١٢) نزلت في بني سلمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم ، وينتقلوا إلى جوار مسجد الرسول ﷺ ، فقال لهم " دياركم تكتب آثاركم " فعلى هذا فإنها مدينة[١] .

٢ــ عدد آياتها وكلماتها وحروفها :

أ ــ عدد آيات السورة بإجماع العلماء ثلاث وثمانون آية.

ب ــ عدد كلماتها سبعمائة وتسع وعشرون كلمة.

ج ــ عدد حروفها ثلاثة آلاف حرف.

د ــ مجموع فواصل آياتها:الميم والنون ، وجمعت بكلمة (من)[٢].

ثالثاً : مناسبة السورة لما قبلها وبعدها :

علم المناسبة علم حسن ، وهو سر البلاغة لتحقيقه مطابقة المعاني لمقتضى الحال، وإلى ذلك أشار العز الدين بن عبد السلام : (المناسبة علم حسن ؛ ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر. [٣]

وهذا ما يسميه علماء البلاغة بتشابه الأطراف .

وقال البقاعي عن علم المناسبات : علم تعرف منه علل الترتيب ، وموضوعه : أجزاء الشئ المطلوب علم مناسبته من حيث الترتيب،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ٣/١٥ .

(٢) بصائر ذوي التمييز ٣٩٠/١ ، واللباب في علوم الكتاب للدمشقي ١٦٢/١٦ ، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢٠٠/١ .

(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٣٧/١ .

وثمرته: الاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب ماله بما وراءه، وما أمامه من الارتباط والتعلق الذي هو كلحمة النسب ، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال ، وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها ، فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة وكانت نسبته من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو.[1].

١ــ مناسبة السورة لما قبلها :

ووجه اتصال سورة يس بما قبلها يرجع إلى: أنه لما ذكر في سورة فاطر قوله:﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ سورة فاطر آية (٣٧) وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ سورة فاطر (٤٢) والمراد به محمد ﷺ وقد أعرضوا عنه وكذبوه ، فافتتح السورة بالإقسام على صحة رسالته ، وأنه على صراط مستقيم ، لينذر قوماً ما أنذر آباؤهم وهذا وجهٌ بينٌ(٢)، وفي فاطر قوله تعالى : ﴿وسخرَّ الشمس والقمر﴾ فاطر (١٣)،وفي سورة يس:﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ* وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾يس(٣٨،٣٩) ، وذلك أبسط وأوضح[3] .

ولا يخفى أن أمر المناسبة يتم على تفسير النذير بغيره فتأمل[4] .

وفي فاطر قوله تعالى:﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ سورة فاطر(١٢)

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي : ١/٥ .

(٢) أسرار ترتيب القرآن للسيوطي : ١٢٦ ، وروح المعاني للألوسي : ٢٢/٣١٣ .

(٣) أسرار ترتيب القرآن للسيوطي : ١٢٦ .

(٤) روح المعاني : ٢٢/٣١٣ .

وفي يس ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ * وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ سورة يس (٤١ ــ٤٣) فزاد القصة بسطاً[1] .

٢ــ مناسبة السورة لما بعدها :

قال الإمام السيوطي:إن سورة الصافات بعد سورة (يس) كالأعراف بعد الأنعام، وكالشعراء بعد الفرقان، في تفصيل أحوال القرون المشار إلى إهلاكهم، كما أن تينك السورتين تفصيل لمثل ذلك [2] .

وقد أشارت كثير من الآيات في سورة الصافات إلى ما في سورة يس إما على سبيل التفصيل والبيان أو النظير أو غير ذلك . ومنه :

قوله تعالى في سورة يس : ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾يس (٣١) ، إشارة إلى القرون المكذبة وإهلاكهم ، فجاء مفصلاً في الصفات : ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ الصافات ١٦،٢٢ .

وقد أوجز المراغي مناسبة سورة الصافات لما قبلها من سورة يس إلى ما يأتي :

أ ــ إن في سورة الصافات تفصيل أحوال القرون الغابرة التي أشير إليها إجمالاً في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝﴾ يس(٣١).

---

(١) أسرار ترتيب القرآن للسيوطي : ١٢٦ .

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة .

ب ــ إن في سورة الصافات تفصيلاً لأحوال المؤمنين وأحوال أعدائهم الكافرين يوم القيامة مما أشير إليه إجمالاً في سورة يس .

ج ــ المشاكلة بين آخر (يس) وأول (الصافات) إنه ذكر في الأولى قدرته تعالى على المعاد وإحياء الموتى ، وعلل ذلك بأنه منشؤهم وأنه إذا تعلقت إرادته بشئ كان ، وذكر في الثانية ما هو الدليل على ذلك ، وهو وحدانيته تعالى ، إذ لا يتم ما تعلقت به الإرادة إيجاداً وإعداماً إلا إذا كان المريد واحداً [1] .

رابعاً : أغراض السورة وأهم مقاصدها :

الموضوعات التي تناولتها هي ذات الموضوعات التي تناولتها السور المكية ، وغرضها بناء أسس العقيدة السليمة فيما يتعلق بجوهر التوحيد ، وتأكيد أمر الرسالة وإقامة البراهين على البعث والنشور والإيمان بالغيب والجنة والنار وغير ذلك .

وامتازت سورة يس بقصر الفواصل مع سرعة الإيقاع ، وتعمل على مضاعفة أثرها ما تحمله معها من الصور والمشاهد المتتابعة من بدء السورة إلى نهايتها ، وهي متنوعة وموحية وعميقة الآثار[2].

وابتدأت هذه السورة بالتحدي بإعجاز القرآن بالحروف المقطعة ، وبالقسم بالقرآن العظيم تنويهاً به ووصفه بالحكيم إشارة إلى بلوغه أعلى درجات الكمال والإحكام ، والمقصود من ذلك صحة الوحي وإثبات الرسالة وصدق النبي ﷺ ثم تحدثت عن كفار قريش الذين تمادوا في الغي والضلال، وكذبوا سيد المرسلين ﷺ فحق عليهم عذاب الله وانتقامه، ثم ساقت قصة أهل إنطاكية الذين كذبوا الرسل لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة على طريق القرآن في استخدام القصص للعظة

---

(١) تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي : ٢٢ / ٤١ .

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب : ٢٣/٦ .

والاعتبار، وذكرت موقف الداعية المؤمن (حبيب النجار) الذي نصح قومه حيا وميتاً ، فأدخله الله الجنة ، ولم يهمل الكافرين بل أخذهم بصيحة الهلاك والدمار [1] .

كما تحدثت السورة عن قضية الألوهية والوحدانية في هذا الكون العجيب ، وبيان البراهين المختلفة في إحياء الأرض الميتة التي تدب فيها الحياة ، ثم مشهد الليل ينسلخ منه النهار ، فإذا هو ظلام دامس ، ثم مشهد الشمس الساطعة التي تدور بقدرة الله تعالى في فلك لا تتخطاه، ثم مشهد القمر يتدرج في منازله ، ثم مشهد الفلك المشحون يحمل ذرية البشر الأولين ، وكلها دلائل باهرة وآيات واضحة على قدرة الله تعالى وجبروته في ملكوته [2] .

والقضية التي يشتد عليها التركيز في السورة هي قضية البعث والنشور ، وهي تتردد في مواضع كثيرة من قوله تعالى :﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ يس(١٢) ، ومروراً بما وقع للرجل من دخوله الجنة ، ثم ترد في وسط السورة بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ يس ٤٨ــ٤٩ ، ثم يستطرد السابق إلى مشهد البعث واليوم الآخر، وذلة الكفار عند الموت ، وحيرتهم ساعة البعث ، وسعادة المؤمنين المطيعين ، وشغلهم في الجنة وما أعد الله فيها من نعيم مقيم ، وتمييز المجرمين عن غيرهم بقوله :﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾

---

(١) صفوة التفاسير لمحمد على الصابوني : ٣/٣ ط : دار الفكر ، ط: ثانية بيروت لبنان ــ ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م .

(٢) صفوة التفاسير: ٣/٣ ، وبصائر ذوي التمييز : ٣٩٠/١ ط. إحياء التراث الإسلامي بالقاهرة . تحقيق محمد على النجار ، وعبد العليم الطحاوي ، ١٣٨٣هـ .

يس(٥٩)، وشهادة الجوارح على أهل المعاصي بمعاصيهم ، وعدم صيانتهم لعهد الله تعالى بتكذيب رسله واتباع الشيطان وجنده ، ثم العذاب الذي وعدوا به ، مع تصويره لنفوسهم في سرهم وعلانيتهم ، وبيان قدرة الله تعالى بالبراهين القاطعة بإعادة بعثهم من خلال قدرته على بناء الإنسان ثم تنكيسه وهكذا حال المخلوقات[١] .

وبعدها يعود لإثبات الرسالة من جديد بنفي صفة الشعر عن القرآن الكريم وإثبات كونه كلام الله تعالى، وذلك بنفي الصفة عن رسول الله ﷺ، بقوله:﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾يس(٦٩) ، ثم يعرض بعض المشاهد واللمسات الدالة على الألوهية المنفردة ، ويتناول قضية البعث بالتذكير بالنشأة الأولى، وبالشجر الأخضر الذي منه يوقدون، وعظيم خلق السماوات والأرض ليختم السورة بما يتلاءم مع الآيات والبراهين وبيان قدرته على خلقه بقوله:(كن فيكون) وتنزيه نفسه بنفسه وتفرده بمقاليد ملكه وملكوته[٢] .

فقامت السورة على تقرير أمهات أصول الدين على أبلغ وجه وأتمه من إثبات الرسالة ، والوحي والتوحيد ، وشكر المنعم ، وهذه أصول الطاعة بالاعتقاد والعمل، ومنها تتفرع الشريعة ، وإثبات الجزاء على الخير والشر مع إدماج الأدلة من الآفاق والأنفس بتفنن عجيب، فكانت هذه السورة جديرة بأن تسمى " قلب القرآن" ؛ لأن من تقاسيمها تتشعب شرايين القرآن كله ، وإلى وتينها ينصب مجراها[٣] .

---

(١) بصائر ذوي التمييز : ١/٣٩٠ ، في ظلال القرآن : ٢٣/٨ــ٩ .

(٢) في ظلال القرآن : ٢٣/٩ ، وصفوة التفاسير : ٣/٣.

(٣) التحرير والتنوير ٢٣ /٣٤٤ .

المحور الأول

أسرار التعبير البلاغي في الآيات التي تتحدث عن إثبات الرسالة

﴿ يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ۝١١ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ۝١٢ ﴾.

سبق أن بينت المراد بكلمة يس.

والقرآن : كلمة القرآن مأخوذة من قرأت الشئ قرآناً أي : جمعته وضممت بعضه إلى بعض ومنه قولهم : ما قرأت هذه الناقة سلى قط والسلى الذي يكون فيه الولد . وما قرأت جنيناً ، أي لم تضم رحمها على ولد ، قال عمرو بن كلثوم :

تُرِيكَ إِذَا دَخَلَتْ عَلَى خَلاَءٍ
وَقَدْ أَمِنَتْ عُيُونَ الكَاشِحِينَا
ذِرَاعِي عَيْطَلٍ أَدْمَاءَ بِكْرٍ
هِجَانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَا جَنِينَا[1]

---

(١) ديوان عمر بن كلثوم : ٦٤ . دار صادر ـ بيروت .

فالقرآن سمّى بذلك لأنه يجمع السّور فيضمّها وقيل: سُمّى به لأنّه جُمع فيه القصص والأمر والنهى والوعد والوعيد، أو لأنّه جامع ثمرة كتب الله المنزلة، أو لجمعه ثمرة جميع العلوم. وقال قطرب : في أحد قوليه، يقال: قرأت القرآن أى لفظت به مجموعاً.وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ القيامة (١٧) أي جمعه وقراءته ، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ القيامة (١٨) ، أي قراءته. قال ابن عباس – رضي الله عنهما – فإذا بيّناه لك بالقراءة فاعمل بما بيّناه لك[١] .

والقسم بالقرآن كناية[٢] عن شرف قدره وتعظيمه عند الله تعالى .

والحكيم : إما استعارة أو تجوز في الإسناد[٣] .

فـ ﴿الْحَكِيمِ﴾ : يجوز أن يكون بمعنى المُحْكَم بفتح الكاف، أي المجعول ذا إحكام، والإحكام: الإتقان بماهية الشيء فيما يراد منه [٤].

وعلى هذا يكون الحكيم استعارة مكنية .

ويجوز أن يكون بمعنى صاحب الحِكمة، ووصفه بذلك مجاز عقلي ، لأنه محتوٍ عليها [٥] .

﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

قال الإمام السيوطي : إذا اجتمعت إن واللام كان بمنزلة تكرير الجملة ثلاث مرات لأن ﴿إن﴾ أفادت التكرير مرتين فإذا دخلت اللام

---

(١) كتاب العين : لأبى عبد الرحمن خليل بن أحمد الفراهيدي : ٧٧٦ دار إحياء التراث العربي ط : أولى ، بيروت لبنان ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م .

(٢) الكناية : " لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ " الإيضاح ص٢٨٦ .

(٣) حاشية الشهاب ٢٣٢/٧ .

(٤) التحرير والتنوير ٣٤٥/٢٢ .

(٥) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة .

صارت ثلاثاً)[1] .

فالآية هنا أكدت بأكثر من مؤكد (القسم ، وإن ، واللام) ؛ لأن المخاطب منكر ، ويسمي هذا النوع من أضرب الخبر بالضرب الإنكاري، وقد جاء هذا التأكيد على مقتضى الظاهر ، والغرض من تأكيد هذه الجملة إظهار كمال العناية بمضمونها ، وهو أن الرسول ﷺ مرسل من قبل الله تعالى والتعريض[2] بالمشركين الذين كذبوا برسالته .

وفي قوله تعالى ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ﴿على﴾ للاستعلاء المجازي الذي هو بمعنى التمكن. الصراط المستقيم : الطريق القيم الموصل إلى المطلوب[3] .

قال الزمخشري : التنكير في قوله﴿صراط﴾ دال على أنه أرسل من بين الصراط المستقيمة على صراط لا يكتنه وصفه ... قال أحمد قد تقدم في مواضع أن التنكير قد يفيد تفخيماً وتعظيماً وهذا منه[4] وعلى ذلك يكون التنكير في قوله تعالى ﴿صراط﴾ للتفخيم والتعظيم .

وقال السيوطي : هو في اللغة الطريق استعمل في القرآن بمعنى الطريق الدينية ، وأصله السين ، ثم ينقلب صاداً لحرف الإطباق بعدها ، وفيه ثلاث لغات : بالصاد ، والسين ، وبين الصاد والزاي .

وحيثما ورد في القرآن فمعناه الطريق الموصل إلى الصراط المستقيم الحسي المنصوب على متن جهنم ، ليمر المؤمنون عليه، أرق

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن للإمام السيوطي ١/٢٥٥ .

(٢) التعريض : المراد به أن يذكر شيئاً يدل به على شئ لم يذكره . الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن ص٣٣ لابن قيم الجوزية ط: المتنبى القاهرة .

(٣) التحرير والتنوير : ٢٢/٣٤٦ .

(٤) هامش الكشاف الكافي الشافي لابن حجر العسقلاني ٣/ ٢٧٩ .

من الشعر ، وأحد من السيف ، وفي حافتيه كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت بأخذه، فمخدوش ناج ، ومكدوس في نار جهنم ، ويمرون عليه بحسب اتباعهم لهذا الصراط المعنوي ، فأولهم كالبرق ، ثم كمر الريح ، ثم كمر الطير ، وكأشد الرجال حتى يجئ الرجل ولا يستطيع السير إلا زحفاً . وقد صح أن له سبع عقبات لا يتجاوزها إلا من قطع عقبات الدنيا . وأنكره أكثر المعتزلة ، لعدم إمكان العبور عليه . ويسهله الله على المؤمن كأنه واد واسع [1] .

ويوجد في هذه الآية الكريمة استعارة تصريحية أصلية ، فالمشبه: الدين ، وهو الهدى الموصل إلى الفوز بالجنة في الآخرة والمشبه به: الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ، حذف المشبه وهو الدين ، وصرح بلفظ المشبه به وهو الصراط المستقيم على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية.

في قوله تعالى:﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ يس (٥) ﴿تنزيل﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي هو ، والضمير للقرآن وقد جوز فيه أن يكون خبر يس إن كان اسما للسورة ، أو مؤولاً بها والجملة القسمية معترضة ، والقسم لتأكيد المقسم عليه والمقسم به اهتماماً فلا يقال أن الكفار ينكرون القرآن فكيف يقسم به لإلزامهم ... والمصدر بمعنى المفعول أو يجعل عين التنزيل مبالغة ... وقرئ بالنصب بإضمار أعني وفعله المقدر على النصب نزل وقوله على أصله معناه الأصلي وهو المصدرية لا مؤولاً باسم المفعول ، وبالجر على البدلية من القرآن[2] .

فعلى الفرع يكون ﴿تنزيل﴾ خبر مبتدأ محذوف وهو من مواضع

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي ٢/٥٨٠ ، معاني القرآن للفراء : ٢/٢٧٢ .
(٢) حاشية الشهاب ٧/٢٣٢ ، ٢٣٣ ط : دار صادر بيروت .

حذف المسند إليه لقرب الحديث عنه ، ولوضوحه ، وعلى النصب للمبالغة في تحقيق كونه منزلاً من عند الله سبحانه وتعالى ، وبالجر على البدل من القرآن .

كما في هذه الآية الكريمة موضع من مواضع الفصل وهو شبه كمال الاتصال [1] وإلى ذلك أشار البقاعي في قوله :

ولما كان كأنه قيل : ما هذا الذي أرسل به؟ كان كأنه قيل جواباً لمن سأل : هو القرآن الذي وقع الإقسام به وهو ﴿تنزيل العزيز﴾ أي المتصف بجميع صفات الكمال ولما كانت هذه الصفة للقهر والغلبة ، وكان ذلك لا يكون صفة كمال إلا بالرحمة قال : ﴿الرحيم﴾، أي : الحاوي لجميع صفات الإكرام الذي ينعم على من يشاء من عباده بعد الإنعام بإيجادهم بما يقيمهم على المنهاج الذي يرضاه لهم ، فهو الواحد الذي لا مثل له أصلاً لما قهر به من عزته ، وجبر به من رحمته نزله إليك وهو في جلالة النظم ، وجزالة القول، وحلاوة السبك ، وقوة التركيب ، ورصانة الوضع، وحكيم المعاني ، وإحكام المباني في أعلى ذرى الإعجاز ، وجعل إنزاله تدريجاً بحسب المصالح مطابقاً مطابقة أعجزت الخلائق عن أن يأتوا بمثلها ، ثم نظمه على غير ترتيب النزول نظماً أعجز الخلق عن أن يدركوا جميع المراد من بحور معانيه وحكيم مبانيه ، فكله إعجاز على ما له من إطناب وإيجاز[2] .

وأضيف التنزيل إلى الله سبحانه وتعالى بصفتي العزيز الرحيم (لأن ما اشتمل عليه القرآن لا يعدُو أن يكون من آثار عزة الله تعالى ، وهو

---

(١) **شبه كمال الاتصال المراد به** : أن تكون الجملة الثانية قوية الاتصال بالجملة الأولى لكونها جواباً عن سؤال اقتضته الأولى فتنزل منزلته فتفصل الثانية عنها ، كما يفصل الجواب عن السؤال . الإيضاح : ص٩١ ط: دار الجيل : بيروت لبنان .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي : ٢٦ / ٩٣، ٩٤ .

ما فيه من حمل الناس على الحق ، وسلوك طريق الهدى... مع ما فيه من الإنذار والوعيد على العصيان والكفران ، وأن يكون من آثار رحمته وهو ما في القرآن من نَصْب الأدلة وتقريب البعيد وكشف الحقائق للناظرين، مع ما فيه من البشارة للذين يكونون عند مرضاة الله تعالى) [1]

والمتأمل لهذه الآيات الكريمة يرى أنه من قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ فصل ؛ وذلك لقوة الاتصال بين هذه الآيات حيث بينت هذه الآيات أن الرسول ﷺ هو المرسل من قبل الله تعالى وأنه على صراط مستقيم ، وأن القرآن المنزل عليه من تنزيل العزيز الرحيم لينذر به قوما لم ينذر ﴿آباؤهم﴾ من قبل ، وذلك في قوله تعالى :

﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ*لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ...﴾ يحتمل أربعة أوجه: النافية،والموصولة، والموصوفة،والمصدر، فـ﴿ما﴾النافية والموصولة – بمعنى الإنذار والتخويف أو الإعلام والمراد به الأول ، ويجوز إرادة الثاني أيضاً ولما كان بين هذا التوجيه والتوجيه الآخر لدال على إنذار آبائهم وبين قوله:﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ فاطر آية (٢٤) منافاة بحسب الظاهر وجهه بأن المراد آباؤهم الأقربون دون الأبعدين فإن إسماعيل – عليه الصلاة والسلام – أنذرهم وبلغهم شريعة إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – وقد كان منهم من تمسك بشرعه وإن اندرس على تطاول المدد ، وأما عيسى ﷺ فلم يرسل إليهم على المشهور فلا

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢ /٣٤٧

يقال إن هؤلاء لم ينذروا مطلقاً بناءً على أحد الأقوال في أهل الفترة ... فيكون صفة مبينة لشدة حاجتهم إلى إرساله فإنه بين أظهرهم وهم قوم لم يبلغهم ولا آباؤهم الأدنون الدعوة بخلافه على الوجه الآتي فإنه ليس صفة، ولا دلالة فيه على ما ذكر وهذا لا ينافي قوله ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ لأن أمة العرب خلا فيها نذير فالأمة أهل العصر جميعهم، وأما عيسى عليه السلام ورسل أهل الكتاب فكانت بعثتهم مخصوصة ببنى إسرائيل إذ عموم الرسالة مخصص بنبينا ﷺ .... فـ﴿ما﴾موصولة أو موصوفة ، وقوله : الأبعدون إشارة إلى التوفيق بين التوجيهين وقوله أو إنذار إلخ فما مصدرية وهو مفعول مطلق ، والمنذر به العذاب [1] .

ولما ذكر المرسَل والمرسَل به والمرسِل ذكر المرسَل له فقال : ﴿لتنذر قوماً﴾أي ذوي بأس ، وقوة ، وذكاء ، وفطنة﴿ما أنذر﴾ أي لم ينذر أصلاً﴿آباؤهم﴾أي الذين غيروا دين آبائهم إبراهيم عليه السلام ومن أتى بعدهم عند فترة الرسل،ولما كان عدم الإنذار موجباً لاستيلاء الحظوظ والشهوات على العقل فيحصل عن ذلك الغفلة عن طريق النجاة قال:﴿فهم﴾أي بسبب زمان الفترة﴿غافلون﴾، فهم كذلك لطول الزمان وحدوث النسيان[2] .

ولما كان تطاول الإقامة على شيء موجباً للإلف له ، والإلف قتال لما يوجب من الإصرار على المألوف لمحبته (وحبك للشيء يعمي ويصم) قال جواباً لمن يتوقع الجواب عما أثمرته حالهم :

﴿لقد حق القول﴾ أي الكامل في بابه وهو إيجاب العذاب بملازمة

---

(١) حاشية الشهاب ٢٣٣/٧ .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي : ٩٤/١٦ .

الغفلة ﴿على أكثرهم فهم﴾ أي بسبب ذلك ﴿لا يؤمنون﴾، أي بما يلقى إليهم من الإنذار بل يزيدهم عمى واستكباراً في الأرض ومكر السيئ [1] .

والغفلة: في قوله تعالى ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ كناية عن الإهمال والإعراض [2].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ* وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ*إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ يس (٨-١١)

﴿أغلالاً﴾ الغُلُّ: جامعةٌ يُشَدُّ في العُنُقِ واليَدِ، وجاء في النص ﴿أغلالا﴾ جمع غل ، والمراد به القيد الذي يوضع في اليد ، وقد تشد به اليد مع العنق . وغل : العين واللام أصل صحيح يدل على تخلل شئ وثبات شئ، كالشئ يغرز ... ويقال للبخيل : مغلول اليد ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ المائدة (٦٤) أي رموه بالبخل تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً [3] .

﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ ﴾ أى فألبسنا أبصارهم غِشَاوة. ونزلت هذه الآية في قوم أرادوا قتل النبىّ ﷺ فأتوه فى مُصَلاَّهُ ، فأعمى الله أبصارهم عنه، فجعلوا يسمعونَ صوته بالقرآن ولا يرونه ، فذلك قوله ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ .

(غش) الغين والشين أصول تدل على ضعف في شئ واستعجال فيه. من ذلك الغش ويقولون (الغش) : أن لا تمحض النصيحة، وسرب

---

(١) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعي : ١٦/٩٥ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٢ /٣٤٨ .

(٣) العين /٧١٧ ، ومعجم مقاييس اللغة / ٧٦٨ ، وتاج العروس : ٨/٤٨ .

غشاش: قليل ، وما نام إلا غشاشا ، أي قليلاً ، ولقيته غشاشاً ، وذلك عند مغيربان الشمس ، والغشاء : الغطاء . وجعل على بصره غشوة بفتح الغين وضمها وكسرها ، وغشاوة بالكسر ، أي غطاء وهو المراد في السورة[1] .

﴿الغيب﴾ :غيباً وغيبة ، وغياباً ، خلاف شهد وحضر يقال : غاب فلان : بعد ، وغاب فلان عن بلاده : سافر . وغابت الشمس وغيرها : غربت واستترت عن العين والشئ في الشئ توارى فيه .

ويقال : غاب عنه الأمر : خفي وعي فلان أو حسه ، غيبوبة : فقده فلان ، غيبة : ذكر من ورائه عيوبه التى يسترها ويسوؤه ذكرها ، فهو غائب غيب ، وغياب .

(أغاب) القوم : دخلوا في المغيب والمرأة : غاب عنها زوجها ، فهي مغيب ، ومغيبة (أغيبت) المرأة غاب زوجها فهى مغيب .(غايبة) مغايبة . وغياباً : خلاف خاطبه ويقال أنا معكم لا أغايبكم (غيبه) وعنه: أبعده وواراه ... والغين والياء والباء أصلٌ صحيح يدلُّ على تستُّر الشيء عن العُيون، ثم يقاس. من ذلك الغَيْب: ما غَابَ ، ممّا لا يعلمه إلا الله.وقوله تعالى ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾البقرة (٣) قيل الغيب هو الله تعالى لأنه لا يرى في دار الدنيا ، وإنما ترى آياته الدالة عليه .

وقيل الغيب : ما غاب عن الناس مما أخبرهم به النبي ﷺ : من الملائكة والجنة والنار والحساب ، وقيل : يؤمنون غابوا عنكم وليسوا كالمنافقين . وقيل الغيب : القرآن[2] .

---

(١) العين : ٧١٣ ، ومعاني القرآن للفراء : ٣٧٣/٢ ، ومعجم مقاييس اللغة / ٧٧١ ، والمعجم الوسيط ٦٥٣/٢ .

(٢) العين : ٧٢٥ ، ومعجم المقاييس اللغة / ٧٧٩ ، وتاج العروس : ٤١٦/١ ، والمعجم الوسيط ٦٦٧/١ .

قوله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ في قوله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً﴾ موضع من مواضع الفصل وهو: بدل الاشتمال[1] حيث إن هذه الجملة بدل اشتمال من جملة ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ فإن انتفاء إيمانهم يشتمل على مَا تضمنته هذه الآية من جعل أغلال في أعناقهم[2].

وقيل : إن الفصل للاستئناف ، وذلك ما أشار إليه صاحب كتاب إعراب القرآن وبيانه في قوله: " كلام مستأنف ، مسوق لتمثيل تصميمهم على الكفر ، وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم عن غيهم "[3] .

وتتمثل بلاغة الاستئناف البياني في: إغناء السامع عن أن يسأل تعظيماً له ، أو شفقة عليه ، أو أن لا يسمع منه شئ أي من السامع تحقيراً له ، وكراهية لكلامه ، أو مثل لا ينقطع كلامك بكلامه أو القصد إلى تكثير المعنى بتقليل اللفظ[4] .

ويوجد في هذه الآية الكريمة استعارة تمثيلية [5]وإلى ذلك أشار صاحب حاشية الشهاب في قوله : " مجموعها استعارة تمثيلية فشبههم

---

(١) **بدل الاشتمال هو** : " أن تنزل الثانية من الأولى منزلة بدل الاشتمال من متبوعه" الإيضاح للخطيب القزوينى : ص١٥٣ ط : مؤسسة المختار ــ القاهرة .

(٢) التحرير والتنوير : ٣٤٩/٢٢ .

(٣) إعراب القرآن وبيانه : ٣٠٧/٢٢ .

(٤) شروح التلخيص : ٥٣/٣ وما بعدها ، شروح التلخيص للخطيب وآخرون ــ دار السرور ، بيروت .

(٥) **الاستعارة التمثيلية** : هي اللفظ المركب المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي تشبه التمثيل للمبالغة في التشبيه ، أي تشبه إحدى صورتين من أمرين أو أمور بالأخرى ، ثم تدخل المشبه في جنس المشبه بها ، مبالغة في التشبيه ، فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه . الإيضاح ، ص٢٧٣ ــ ط : مؤسسة المختار .

في عدم التفاتهم إلى حق وعدم وصولهم إليه بمغلول بين سدين لا يلتفت ولا ينظر لما خلفه وما قدامه وفي التيسير جمع الأيدي إلى الأذقان بالأغلال عبارة عن منع التوفيق حتى استكبروا عن الحق، لأن المتكبر يوصف برفع العنق والمتواضع بضده كما في قوله تعالى﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ الشعراء (٤) [١] .

وتتمثل بلاغة الاستعارة التمثيلية في قول الإمام عبد القاهر الجرجاني:

" واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعانى أو برزت هي باختصار في معرضه ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفاً ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً. فإن كان مدحاً كان أبهى وأفخم ، وأنبل في النفوس وأعظم وأهز للعطف وأسرع للإلف ، وأجلب للفرح ، وأغلب على الممتدح ، وأوجب شفاعة للمادح ، وأقضى له بغر المواهب والمنائح ، وأسير على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر، وإن كان ذماً كان مسه أوجع ، وميسمه ألذع ووقعه أشد وحده أحد[٢].

وعلى ذلك يكون قوله:﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً.. ﴾ من قبيل الذم.

ومن الأسئلة التي تطرح نفسها في هذه الآية : هل يعود الضمير وهو قوله : ﴿ فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ ﴾ على الأغلال أو على الأيدي ؟

وقد رجح الزمخشري عودة الضمير على الأغلال قائلا : فالأغلال

---

(١) حاشية الشهاب ٢٣٣/٧ وإعراب القرآن وبيانه ٣٠٨/٢٢ .

(٢) أسرار البلاغة / ٨٨ تحقيق محمد الفاضلى ــ ط: المكتبة العصرية صيدا ــ بيروت .

واصلة إلى الأذقان ملزوزة إليها ؛ وذلك أن طوق الغل الذي في عنق المغلول ، يكون ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود نادراً من الحلقة إلى الذقن ، فلا تخليه يطأطيء رأسه ويوطيء قذاله ــ القذال : مؤخر الرأس فوق فأس القفا(١) . فلا يزال مقمحاً [٢] .

وقد علل الزمخشري ذلك بقوله : (فإذا قلت : فما قولك فيمن جعل الضمير للأيدي ، وزعم : أن الغل لما كان جامعاً لليد والعنق وبذلك يسمى جامعة كان ذكر الأعناق دالاً على ذكر الأيدي ؟ قلت : الوجه ما ذكرت لك، والدليل عليه قوله :﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ألا ترى كيف جعل الإقماح نتيجة قوله : ﴿فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ﴾ ولو كان الضمير للأيدي لم يكن معنى التسبب في الإقماح ظاهراً ، على أن هذا الإضمار فيه ضرب من التعسف وترك الظاهر الذي يدعوه المعنى إلى نفسه إلى الباطن الذي يجفو عنه ، وترك للحق الأبلج إلى الباطل اللجلج [٣] .

وممن ذهب إلى القول الثاني الفراء في كتابه معاني القرآن ، والشريف الرضي في تلخيص البيان[٤] ورجحه أيضاً الأستاذ محي الدين الدرويش في قوله : ولعل الزمخشري قد بلغ الذروة في هذا التقرير الفريد، ودل على اطلاعه ، وتمكنه من علم البيان على أن الوجه الثاني: وهو عودة الضمير على الأيدي لا يخلو من وجاهة وسمو بيان ، وفيها مبالغة في تصوير الهول تتلائم مع سياق الكلام ، فإن اليد وإن لم يجر لها ذكر في العبارة ، فإن الغل يدل عليها ، بل ويستلزمها ، ولا شك : أن

---

(١) العين للفراهيدي : ٧٧٥ .

(٢) الكشاف ٤/ ٥ .

(٣)الكشاف ٤/٦،٥ .

(٤) معاني القرآن للفراء٢/٢٧٢، وتلخيص البيان في معجزات القرآن للشريف الرضي/٢٢٩ .

ضغط اليد مع العنق في العنق يوجب الإقماح ، أضف إلى ذلك : أن اليد متى كانت مرسلة مخلاة كان للمغلول بعض الفرج بإطلاقها ، ولعله يتحيل بها ، ويستعين على فكاك الغل ، وليس الأمر كذلك إذا كانت مغلولة ، فيضاف إلى ما تقدم من التشبيهات المفرقة أن يكون انسداد باب الحيل عليهم في الهداية ؛ والانخلاع من ربقة الكفر المقدر عليهم مشبهاً بغل الأيدي ، لأن اليد ــ كما قلنا ــ آلة الحيل ، والوسيلة إلى الخلاص) [1].

وقال صاحب ـ فتح القدير ــ مؤيداً ما ذهب إليه الزمخشري :(لفظ هي كناية عن الأيدي لا عن الأعناق) والعرب تحذف مثل هذا ونظيره ﴿سرابيل تقيكم الحر﴾وتقديره : وسرابيل تقيكم البرد، لأن ما وقى من الحر وقى من البرد ، لأن الغل إذا كان في العنق فلا بد أن يكون في اليد، ولاسيما وقد قال الله ﴿ في الأذقان ﴾ فقد علم أنه يراد به الأيدي [2] .

كما يوجد قلب في قوله تعالى:﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً ﴾إذ حقيقته: جعلنا أعناقهم في الأغلال[3] .

والقلب من سنن العرب ومن فنون كلامهم ، ويكون في الكلمة ويكون في القصة .

وفي تنكير (أغلالاً) مبالغة في تعظيمها وتهويل أمرها [4] .

وعبر بالماضي في قوله تعالى:﴿جعلنا﴾ بدلاً من المضارع لتحقق وقوعه كقوله تعالى : ﴿أَتَى أَمْرُ اللّهِ ﴾النحل آية (١) أي سنجعل في

---

(١) إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين الدرويش : ٣٠٩/٢٢ .

(٢) فتح القدير للشوكاني : ٣٦/٤ .

(٣) إعراب القرآن وبيانه : ٣٠٩/٢٢ ، ٣١٠ .

(٤) المرجع السابق : ٣١٠/٢٢ .

أعناقهم أغلالاً ، وهذا أمر محقق الوقوع .

قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ يس آية (٩) في هذه الآية استعارة تمثيلية ثانية ، وقد أشار إلى ذلك صاحب حاشية الشهاب في قوله : (وجعلنا ... إلخ تمثيل آخر لا إنه تمثيلات أخر متعددة ولا المجموع تمثيل واحد كما يتوهم من التقرير السابق والجار والمجرور متعلق بتمثيلهم أيضاً ... ومن بين أيديهم ومن خلفهم قدامهم ووراءهم كناية عن جميع الجهات ووجه الشبه فيهما عقلي في المشبه حسي في المشبه به ، وهو في الحقيقة عدم القدرة على فعل ما ينبغي لهم فهو مشترك بينهما لكنه تسمح فذكر المقصود من عدم التفاتهم وممنوعيتهم كما في قوله كلام كالعسل في حلاوته كما قرر في المعاني فلا يتوهم أن ما ذكر لا يصلح وجهاً للشبه لعدم اشتراكه إذ المغلول قد يكون ملتفتاً للحق[1] .

ويوجد في هذه الآية الكريمة طباق في قوله:﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ فقد جمع بين معنيين متقابلين في هذه الآية وهو الأمام بقوله : ﴿مِن بَيْنِ أَيدِيهِمْ ﴾، والخلف في قوله:﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، وفي هذا التعبير تأكيد ودلالة على شدة إحاطتهم وشمولهم بالكفر فهم لا يستطيعون الخروج من الكفر إلى الإيمان .

﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ والمراد : أغشينا أبصارهم، ففي الكلام حذف مضاف دلّ عليه السياق وأكّده التفريع بقوله:﴿فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ وتقديم المسند إليه﴿هم﴾على المسند الفعلي﴿يبصرون﴾لإفادة تقوي

---

(١) حاشية الشهاب ٧ /٢٣٤ .

الحكم ،أي تحقيق عدم إبصارهم [1] .

قال الرازي : مانع الإيمان: إما أن يكون في النفس، وإما أن يكون خارجاً عنها ، ولهم المانعان جميعاً من الإيمان : أما في النفس فالغُلّ، وأما من الخارج فالسد ، ولا يقع نظرهم على أنفسهم فيرون الآيات التي في أنفسهم كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ﴾ فصلت آية(٥٣) وذلك لأن المقمح لا يرى نفسه ولا يقع بصره على يديه ، ولا يقع نظرهم على الآفاق وعلى هذا فقوله : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِى أَعْنَاقِهِمْ﴾، ﴿وَجَعَلْنَا مِنا بَيْنِ أَيدِيهِمْ﴾ إشارة إلى عدم هدايتهم لآيات الله في الأنفس والآفاق ... [2] .

فلقد قضى الله فيهم بأمره ، بما علمه من طبيعة قلوبهم التي لا ينفذ إليها الإيمان . ولا ينفع الإنذار قلباً غير مهيأ للإيمان ، مشدود عنه ، فالإنذار لا يخلق القلوب ، إنما يوقظ القلب الذي المستعد للتلقي ، أما إنذار النبي ﷺ لهم فمخرج له عن العهدة وسبب لنيل ثواب الإنذار وإن لم ينتفعوا به [3].

ولذلك قال تعالى: ﴿وَسَوَاءعَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَيُؤْمِنُونَ﴾يس آية(١٠) .

وقوله تعالى : ﴿وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ...﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان شأنهم بطريق التوبيخ بعد بيانه بطريق التمثيل،ولك أن تعطفه على ما قبله، فتكون الواو عاطفة ، وسواء خبر مقدم ، وعليهم متعلقاً بسواء، والهمزة للاستفهام ، وهى همزة التسوية ... وهى مع الفعل بعدها في تأويل مصدر مبتدأ مؤخر ، أي : مستو عندك إنذارك إياهم

---

(١) التحرير والتنوير : ٢٢/٣٥٢ .

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٦ /٤٥ .

(٣) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٦ /٤٦ ، ٤٧، في ظلال القرآن : ٢٣ / ١٢ــ١٣ .

وعدمه[1] .

وهمزة التسوية أصلها الاستفهام ثم استعملت في التسوية على سبيل المجاز المرسل[2]، وشاع ذلك حتى عدّت التسوية من معاني الهمزة لكثرة استعمالها في ذلك مع كلمة سواء وهي تفيد المصدرية[3] .

وفي قوله :﴿لا يؤمنون﴾ موضع من مواضع الفصل ، والفصل هنا للبيان وإلى ذلك أشار صاحب كتاب فتح القدير في قوله:{لا يؤمنون} مستأنفة مبينة لما قبلها ، من الاستواء [4] ولما بين الله سبحانه وتعالى كون الإنذار عندهم كعدمه عقبه ببيان من يتأثر منه ، قال : ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر﴾ يس (١١) إي إنذاراً مستتبعاً للأثر﴿من اتبع الذكر﴾ أي أجهد نفسه في اتباع كل ما يذكر بالله من القرآن وغيره ، ولم يصر على خطوات الشيطان﴿وخشى الرحمن بالغيب﴾ أي خاف عقابه وهو غائب عنه، ودل لفت الكلام عن مظهر العظمة إلى الوصف بالرحمانية على أن أهل الخشية، يكفيهم في الاتعاظ التذكير بالإحسان فهؤلاء هم الذين ينفعهم الإنذار وغيرهم لا سبيل إلى استقامته ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فإنه ليس عليك إلا الإنذار ، إن الله عليم بما يصنعون ، ولما دل السياق على المنتفعين بالإنذار، تشوق السامع إلى معرفة جزائه ، فقال مفرداً الضمير على النسق الماضي في مراعاة لفظ (من) دلالة على قلة هذا الصنف من الناس بأجمعهم في هذه السورة الجامعة بكونها

---

(١) إعراب القرآن وبيانه : ٢٢/٣١٠ .

(٢) **المجاز المرسل هو** : ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع لـه ملابسة غير التشبيه ، الإيضاح ص٢٤٧ .

(٣) التحرير والتنوير : ٢٢/٣٥٢ .

(٤) فتح القدير : ٤/٣٦٢ .

قلباً لما تفرق في غيرها[1] .

وفي هذه الآية الكريمة أسلوب قصر[2]،حيث قصر صفة الإنذار على الموصوفين باتباع الذكر،وخشية الرحمن بالغيب،وطريق القصر ﴿إنما﴾ .

والتعبير بالماضي في قوله:﴿اتبع الذكر﴾ فيه دلالة على تحقيق الاتباع والخشية ، وكذلك يوجد بين قوله :﴿تنذر﴾ ، ﴿وبشر﴾ محسن بديعي وهو الطباق[3] لبيان أن أول أمرهم الإنذار وعاقبته التبشير .

والتعبير بوصف ﴿الرَّحْمَنَ﴾ دون اسم الجلالة لوجهين:

أحدهما: أن المشركين كانوا ينكرون اسم الرحمن، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ .

والثاني: الإشارة إلى أن رحمته لا تقتضي عدم خشيته فالمؤمن يخشى الله مع علمه برحمته فهو يرجو الرحمة.[4] .

﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أي بشر هذا الذي اتبع الذكر ، وخشي الرحمن بالغيب بمغفرة عظيمة وأجر كريم : أى حسن ، وهو الجنة [5] .

ولما بين الأصل الثاني الذي هو الرسالة واتبعها ثمرتها المختومة بالبشارة وكان الأصل الثالث في الإيمان وهو البعث سبباً عظيماً في

---

(١) تفسير زاد المسير ٨/٧ ، ونظم الدر : ٩٩/١٦ ، ١٠٠ ، وتفسير أبى السعود : ٢٩١/٥ .

(٢) **القصر في اللغة** : الحبس .

وفي الاصطلاح : تخصيص شئ بشئ بطريق مخصوص ، بغية الإيضاح ٣/٢ لعبد المتعال الصعيدى ــ مكتبة ومطبعة صبيح .

(٣) **الطباق هو** : الجمع بين المتضادين ، أي : متقابلين في الجملة ، الإيضاح ص٣ .

(٤) التحرير والتنوير : ٢٢/ ٣٥٣ ، ٣٥٤ بتصرف يسير .

(٥) فتح القدير : ٣٦٢/٤ .

الترقية إلى اعتقاد الوحدانية التى هي الأصل الأول مقتراً عليهم في دنياهم منغصة عليهم حياتهم ، علل هذه البشارة بأن هذا الأجر في هذه الدار بالملابس الباطنة الفاخرة من المعارف والسكينة ، والبركات والطمأنينة، وبعد البعث بالملابس الطاهرة الزاهرة المسببة عن الملابس الدنيوية الباطنة الخفية غير أهلها ، بشارة لهم ونذارة للقسم الذي قبلهم بقوله مقدماً للبعث لما ذكر من فائدته لافتاً القول إلى مظهر العظمة إيذاناً بعظمة هذه المقاصد وبأنه لا يحمي هؤلاء الخلص مع قلتهم ومباينتهم للأولين مع كثرتهم إلا من له العظمة الباهرة قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ يس آية (١٢) .

قال صاحب حاشية الشهاب في قوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ أي الأموات على الحقيقة ، والضمير لإفادة الحصر أو التقوية وهو استئناف أو المراد الجهال بالهداية لاستعارة الموت والحياة لهما ... وهو تعليل لما قبله ، والضمير للحصر أو التقوية أيضاً[1] .

وقال صاحب صفوة التفاسير في قوله : ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أي بما لدينا من العظمة التي لا تضاهى ﴿نُحْيِي﴾ بحسب التدريج الآن وجملة في الساعة ﴿ الْمَوْتَى﴾ أي كلهم حساً بالبعث ومعنى بالإنقاذ إذا أردنا من ظلهم الجهل ، وهو تذييل[2] عام للفريقين المصممين على الكفر والمشفعين بالإنذار ترهيباً وترغيباً ، ووعيداً ووعداً ، وتكرير الضمير لإفادة الحصر أو التقوية ، فقصر صفة الإحياء على الموصوف وهو الله سبحانه وتعالى، والقصر هنا مستفاد من السياق .

---

(١) حاشية الشهاب ٧/٢٣٤ .

(٢) **التذليل:** هو تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد. الإيضاح ص١٩٣.

وما ألطف هذا الضمير الذي عكسه كطرده هاهنا ، وضمير العظمة للإشارة إلى جلالة الفعل والتأكيد للاعتناء بأمر الخبر أو لرد الإنكار فإن الكفرة كانوا يقولون : ﴿إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ المؤمنون آية (٣٧) أي إنا نحن نحيي الأموات جميعاً ببعثهم يوم القيامة ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا ﴾ المعنى ما قدموا وأخروا فاكتفي بأحدهما لدلالته على الآخر كقوله تعالى : ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ النحل آية (٨١) ، أي والبرد ، وقيل المعنى ما أسلفوه من الأعمال صالحة كانت أو طالحة كقوله تعالى : ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ البقرة آية (٩٥) فالآية على هذا التقدير تكون من الإيجاز[١] بالحذف .

كما بين قوله تعالى﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ جناساً ناقصاً بين[٢] ﴿نَحْنُ نُحْيِي﴾ لتغير بعض الحروف وزيادتها وهذا من بديع الكلام[٣]﴿وَآثَارَهُمْ ﴾ أي ما سنوا من سنة حسنة أو سيئة فالحسنة كالكتب المصنفة، والقناطر المبنية ، أو علم علموه ، أو حبيس وقفوه ، أو بناء في سبيل الله بنوه ، وغير ذلك من وجوه البر .

أما السيئة كتأسيس قوانين الظلم والعدوان وترتيب مبادئ الشر والفساد بين العباد وغير ذلك من فنون الشرور[٤] .

قال الإمام الرازي في قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾

---

(١) **الإيجاز**:هو أداء المقصود من الكلام بأقل من متعارف الأوساط . الإيضاح ، ص١٧٣ .

(٢) **الجناس الناقص**: هو أن يختلفا بزيادة أكثر من حرف واحد . الإيضاح ص٣٣٥ .

(٣) صفوة التفاسير ٣/١٠ .

(٤) المحرر الوجيز : ١٢/٢٧٨ ، وزاد المسير : ٧/٧ــ٩ ، وتفسير الرازي : ٢٦/٤٩ ، ونظم الدرر : ١٦/١٠١ ، ١٠٢ .

يحتمل وجوهاً :

احدها : أن يكون ذلك بياناً لكون ما قدموا وآثارهم أمراً مكتوباً عليهم لا يبدل ، فإن القلم جف بما هو كائن فلما قال:﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ بين أن قبل ذلك كتابة أخرى فإن الله كتب عليهم أنهم سيفعلون كذا وكذا ثم إذا فعلوه كتب عليهم أنهم فعلوه .

وثانيهما : أن يكون ذلك مؤكداً لمعنى قوله : ﴿وَنَكْتُبُ﴾ لأن من يكتب شيئاً في أوراق ويرميها قد لا يجدها فكأنه لم يكتب ، فقال : نكتب ونحفظ ذلك في إمام مبين وهذا كقوله تعالى : ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾ طه آية (٥٢) .

وثالثهما : أن يكون ذلك تعميماً بعد التخصيص كأنه تعالى يكتب ما قدموا وآثارهم وليست الكتابة مقتصرة عليه ، بل كل شيء محصى في إمام مبين ، وهذا يفيد أن شيئاً من الأقوال والأفعال لا يعزب عن علم الله ولا يفوته ، وهذا كقوله تعالى : ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ القمر آية (٥٢، ٥٣) يعني ليس ما في الزبر منحصراً فيما فعلوه بل كل شيء فعلوه مكتوب[1] .

وإيراد كلمة ﴿ أَحْصَيْنَاهُ ﴾ بدل كتبناه فيه زيادة بلاغة وبيان حيث أن من كتب شيئاً مفرقاً يحتاج إلى جمع عدده فكانت هذه الكلمة أشد ضبطاً ودقةً وبياناً ، ومن المعلوم أن الكتابة قبل الإحياء ولكنها تأخرت عليه في الآية:﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ ، وذلك أن الكتابة معظمة ، لأمر الإحياء ، لأن الإحياء إن لم يكن للحاسب لا يعظم ،

---

(١) تفسير الرازي : ٥٠/٢٦ ، واللباب : ١٨/١٦ .

والكتابة في نفسها إن لم تكن إحياء وإعادة لا يبقى لها أثر أصلاً والإحياء هو المعتبر ، والكتابة مؤكدة معظمة لأمره فلهذا قدم الإحياء ولأنه تعالى لما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ وذلك يفيد العظمة والجبروت ، والإحياء العظيم يختص بالله ، والكتابة دونه فقرن بالتعريف الأمر العظيم وذكر ما يعظم ذلك الأمر العظيم[1] .

---

(١) تفسير الرازي : ٢٦/٤٩ ، ٥٠ .

المحور الثاني
أسرار التعبير البلاغي في الآيات التي تتحدث عن أصحاب القرية والمرسلين

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ * وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿الْقَرْيَة﴾ القرية بفتح القاف وكسرها : الضيعة ، والمصر الجامع ، وجمع الناس، والجمع قرى، بضم القاف وكسرها، والنسبة إليها قروي ،

وقريى والمراد بها هنا : أنطاكية[1] .

(عززنا) العز: ضد الذل ، نقول منه : عزّ يعِزُّ عِزاً ــ بكسر العين فيهما ــ وعَزازة ــ بالفتح ــ فهو عزيز : أي قوي بعد ذلة ، أعزه الله . وعززت عليه ــ بالفتح ــ كرمت عليه وقوله تعالى : ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ يس (١٤) يخفف ويشدد ، أي : فقويناهم وشددنا ظهورهم برسول ثالث مأخوذ من العزة وهي القوة والمنعة ... والتعزيز التقوية وفي هذه المادة معنى جعل المقوى عزيز فالأحسن أن التعزيز هو النصر[2] .

(البلاغ) الباء واللام والغين أصلٌ واحد وهو الوُصول إلى الشيء. تقول بَلَغْتُ المكانَ، إذا وَصَلْتَ إليه. وقد تُسَمّى المُشارَفَةُ بُلوغاً بحقّ المقاربة. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ الطلاق:(٢) . ومن هذا الباب قولهم هو أَحْمَقُ بِلْغٌ وبَلْغٌ، أي أنّه مع حماقته يبلغ ما يريده. والبُلْغَة ما يُتَبَلَّغُ به من عَيْش، كأنّه يُرادُ أنّه يبلُغُ رُتْبَةَ المُكْثِرِ إذا رَضِيَ وقَنَع، وكذلك البَلاغَة التي يُمْدَحُ بها الفَصيحُ اللّسان، لأنّه يبلُغُ بها ما يريده، ولي في هذا بلاغٌ أي كفاية. وقولهم بَلَّغَ الفارسُ، يُرادُ به أنّه يمدّ يدَه بعِنانِ فرَسِه، لِيَزيد في عَدْوِه. وقولهم تبلَّغَتِ القِلَّة بفلانٍ، إذا اشتَدَّتْ، فلأنّه تناهيها به، وبلوغها الغاية[3] .

(تطيرنا) الطاء والياء والراء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على خِفّة الشَّيءِ في الهواء ، ثمَّ يستعار ذلك في غيرِه وفي كلِّ سُرعة ويقال: تَطَايَرَ الشَّيءُ : تفرَّق.واستطار الفجر: انتشر، قال الله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ

---

(١) إعراب القرآن وبيانه : ٣١٢/٢٢ .

(٢) تاج العروس :٥٥/٤ ، وصفوة البيان لمعاني القرآن للأستاذ حسنين محمد مخلوف : ٥٥٨ .

(٣) معجم مقاييس اللغة : ١٣٧ ، والمعجم الوسيط : ٩٦/١ .

مُسْتَطِيراً﴾ الدهر:(٧)،... وجمع الطائر:طَيْر، كراكبْ، وركْب، قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ النمل آية (٢٠)، وقد يجمع على طيور وأطيار، وطيّرت الحمامَ، وأطرته، وقوله: ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ﴾ الأعراف آية (١٣١)، أي يتشاءَمُونَ بهم، ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ الأعراف آية (١٣١)، أي شؤمهم وما قد أعدّ الله لهم بسوءِ أعمالهم... ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ يس (١٨) أي تشاءمنا بكم، وذلك أنهم كرهوا دينهم ونفرت منه نفوسهم(١).

(ليمسنكم) الميم والسين أصلٌ صحيح واحدٌ يدلُّ على جَسِّ الشّيء باليد. ومَسِستُهُ أَمَسُّهُ، وربما قالوا: مَسَسْتُ أَمُسُّ، والممسُوسُ: الذي به مَسٌّ، كأنَّ الجِنّ مسَّتْه، والمَسُوس من الماء: ما نالته الأيدي(٢).

وقال علماء التفسير: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يس(١٨) قيل: الحريق، وقيل عذاب غيره تبقى معه الحياة، والمراد لنقتلنكم بالحجارة، أو لنعذبنكم إذا لم نقتلكم عذاباً أليماً لا يقادر قدره تتمنون معه القتل، وقيل: أريد بالعذاب الأليم العذاب الروحاني وأريد بالرجم بالحجارة النوع المخصوص من الأذى الجسماني، فكأنهم قد رددوا الأمر بين إيذاء جسماني وإيذاء روحاني، وقيل: أريد بالعذاب الأليم الجسماني وبالرجم العذاب والأذى الروحاني بناء على أن المراد به الشتم، وقيل غير ذلك(٣).

---

(١) العين ٥٨٣، ومعجم مقاييس اللغة: ٦٠٥، والكشاف: ٦/٤، والجامع لأحكام القرآن: ١٢/١٥، وتاج العروس: ٣٦٤/٣.

(٢) معجم مقاييس اللغة: ٩٢٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٥٤٥/٣، وروح المعاني: ٣٣٣/٢٢.

(مسرفون) قال الخليل : (الأسرف وسَرِفَ موضعان بالحِجاز والإسراف نقيض الاقتصاد ، والسرف : الجاهل) وقال[1] :

إنَّ امرَءاً سَرِفَ الفُؤادِ يَرَى

عَسَلاً بماءِ سحابةٍ شَتْمي

والسَّرَفُ : الخَطَأ ، يقال : أردْتُكم فسَرِفْتُكم ، قال : ما في عَطائِهِمُ مَنٌّ ولا سَرَفُ ، أي لا يُخطِئُون ويَضَعُونَه موضعَه[2] .

وقال ابن فارس : السين والراء والفاء * أصلٌ واحدٌ يدلُّ على تعدّي الحدّ والإغفالِ أيضاً للشيء.تقول: في الأمر سرَفٌ، أي مجاوزَةُ القدر[3] .

لما انتهي الكلام في إثبات الرسالة لإنذار يوم الجمع ، وكان الإنذار غاية ، وكانت الغايات هي المقاصد بالذات ، وكانت غاية الإنذار اتباع الذكر ، فكان ذلك غاية الغاية ، كان الكلام على المتبعين أولى بالتقديم على أنه يلزم من الكلام فيهم الكلام في أضدادهم وهم المعرضون الذين حق عليهم القول والكلام على اليوم المنذر به فلذلك ضرب المثل الجامع لذلك كله ، ومر إلى أن صور البعث تصويراً لم يتقدم مثله ، ثم عطف بآية الطمس وما بعدها على القسم المعرض ، ثم رجع إلى الكلام على الرسول والكتاب .

ولما دل سبحانه على ما له من القدرة الكاملة بالأفعال الهائلة من كل من الإماتة والإحياء الحسيين والمعنويين إبداء وإعادة ، وكان ضرب الأمثال بالمشاهدات ألصق شيء بالبال ، وأقطع للمراء والجدال ، وأكشف لما يراد من الأحوال ، قال عاطفاً على (فبشره) مبيناً للأصل الثالث الذي هو الأول بالأصالة المقصود بالذات ، وهو التوحيد ، ضاماً

(١) ديوان طرفة بن العبد : ٨٧ .

(٢) العين : ٤٢٣ .

(٣) الفردوس بمأثور الخطاب : ١٠٣/٢ .

إليه الأصلين الآخرين ، ليكون المثل جامعاً،والبرهان به واضحاً ساطعاً : (واضرب لهم) أي لأجلهم بشارة بما يرجى لهم عند إقبالهم ، ونذارة لما يخشى عليهم عند إعراضهم وإدبارهم (مثلاً) أي مشاهداً في إصرارهم على مخالفة الرسول ، وصبره عليهم ، ولطفه بهم ، لأنا ختمنا على قلوبهم على الكفران مع قربهم منك في النسب والدار ، وفوز غيرهم لأنا نورنا قلوبهم مع البعد في النسب والدار بالإيمان وثمراته الحسان ، لأنهم يخشون الرحمن بالغيب ، ولا يثبتون على الغباوة والريب .

ولما ذكر المثل ، أبدل منه قوله : (أصحاب القرية) التي هي محل الحكمة ، واجتماع الكلمة ، وانتشار العلم ، ومعدن الرحمة .

ولما كان الممثل به في الحقيقة إنما هو إخبارها بأحوال أهلها لأنها وجه الشبه ، وكانت أخبارها كثيرة في أزمنة مديدة ، وعين المراد بقوله: (إذ جاءها) أي القرية لإنذار أهلها (المرسلون) أي عن الله لكونهم عن رسوله عيسى عليه السلام وقيل فيهم غير ذلك[1] .

قوله تعالى ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ* إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ يس آية (١٣،١٤) كلام مستأنف مسوق لأمر النبي بأن يضرب لقومه مثلاً بأصحاب القرية[2] .

قال أبو السعود : (ضرب المثل يستعمل تارة في تطبيق حالة غريبة بحالة أخرى مثلها) كما في قوله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ﴾ التحريم (١٠) ، وأخرى في ذكر حالة غريبة وبيانها للناس من غير قصد إلى تطبيقها بنظيرة لها كما في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا

---

(١) نظم الدرر : ١٦ / ١٠٣ ، ١٠٤ ، وتفسير المراغي : ١٥٠/٢٢ .

(٢) إعراب القرآن وبيانه : ٣١٢/٢٢ ، ٣١٣ .

لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ إبراهيم (٤٥) ، على أحد الوجهين أي بينا لكم أحوالاً بديعة هي في الغرابة ، كالأمثال فالمعنى على الأول اجعل أصحاب القرية مثلاً لهؤلاء في الغلو في الكفر والإصرار على تكذيب الرسل أي طبق حالهم بحالهم على إن ﴿مثلا﴾ مفعول ثان لـ﴿اضرب﴾ و﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ مفعوله الأول أخر عنه ليتصل به ما هو شرحه وبيانه ، وعلى الثاني: اذكر، وبين لهم قصة هي في الغرابة كالمثل ، وقوله تعالى:﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ بدل منه بتقدير المضاف أو بيان له ... [1] .

وقوله : ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ بدل اشتمال من أصحاب القرية ، والمرسلون : هم أصحاب عيسى عليه السلام بعثهم إلى أهل أنطاكية للدعاء إلى الله ، فأضاف الله سبحانه الإرسال إلى نفسه في قوله :﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾لأن عيسى أرسلهم بأمر من الله سبحانه ، ويجوز أن يكون الله أرسلهم بعد رفع عيسى إلى السماء فكذبوهما في الرسالة ، وقيل ضربوهما وسجنوهما . قيل واسم الاثنين يوحنا وشمعون . وقيل أسماء الثلاثة صادق ومصدوق وشلوم قاله ابن جرير وغيره . وقيل يحيى وبولس[2] .

قال القاسمي في هذه القصة : (إن من بلاغة القرآن الكريم هو الإيجاز في الأنباء التي يقصها والإشارة إلى روحها وسرها حرصاً على الثمرة من أول الأمر واقتصاراً على موضع الفائدة ؛ لأن القصد هو الاعتبار والذكر وما من حاجة إلى تسمية تلك المبهمات كائنة ما كانت فاختلاف المفسرين في هذه الحكاية يقطع عدم وجود نص مأثور عنها

---

(١) تفسير أبي السعود ٥ /٢٩٢ .

(٢) فتح القدير للشوكاني : ٤/٣٦٤ .

فتباينات آراؤهم واختلفت أقوالهم ولا بأس في ذلك إن كانت لا تعارض نصاً قرآنياً أو حديثاً نبوياً بحسب ما قرره العلماء أنفسهم ... فالمفسر أحسن أحواله أن يمشي مع التنزيل إجمالاً فيما أجمله وتفصيلاً فيما فصله، ولا يأخذ من إيضاح مبهماته إلا بما قام عليه دليل قاطع أو كان لا ينبذه العلم الصحيح ، وبالجملة فنحن يكفينا من النبأ الاعتبار وفهمه مجملاً وأما تعيينه بوقت ما ، وفئة ما ، فهو الذي ينشأ منه ما ينشأ ، وما بنا من حاجة الزيادة عن الاعتبار وتخصيص ما لا قاطع عليه)[1] .

وهذا الرأي هو الذي تميل إليه النفس باعتبار ما تقدم والله أعلم .

في قوله تعالى : ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ إيجاز بالحذف فقد حذف مفعول (عززنا) والتقدير: فعززناهما بثالث، وإنما جنح إلى هذا الحذف لانصباب الغرض على المعزز به الثالث، وإذا كان الغرض هو المراد، وكان الكلام منصباً عليه، كان ما سواه مطروحاً، ونظيره قولك: حكم الحاكم اليوم بالحق، والغرض المسوق إليه قولك: بالحق، فلذلك رفضت ذكر المحكوم له، والمحكوم عليه ، وإنما اهتمامك كله هو مراعاة جانب الحق[2] .

وتتمثل بلاغة الحذف في قول الإمام عبد القاهر الجرجاني : "هو بابٌ دقيقُ المسلك ، لطيفُ المأخذ ، عجيبُ الأمر ، شبيه بالسِّحر ، فإنَّك ترى به ترك الذِكْر ، أفصحَ من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيدَ للإفادة، وتجدُك أنطقَ ما تكونُ إذا لم تنطِقْ ، وأتمَّ ما تكون بياناً إذا لم تُبِن "[3] .

وسمى ابن جني الحذف شجاعة العربية ؛ لأنه يشجع على الكلام[4].

وقد أشار صاحب حاشية الشهاب إلى التأكيد في قوله تعالى﴿إِنَّا إِلَيْكُم

---

(١) ينظر محاسن التأويل للقاسمي : ١٤ / ٥٠٠ ــ ٥٠٢ .

(٢) إعراب القرآن وبيانه : ٣١٥/٢٢ والكشاف : ٢٨٢/٣ ، ط : دار المعرفة .

(٣) دلائل الإعجاز : ١٤٦٥ تحقيق /محمود محمد شاكر ، ط : مكتبة الخانجي بالقاهرة .

(٤) معترك الأقران : ٢٣٤/١ .

مُّرْسَلُونَ﴾، و﴿ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ﴾بقوله:" أراد الابتداء أنه غير مسبوق بإخبار سابق ولم يرد أنه كلام مع خالي الذهن أن جعل قوله ﴿فقالوا﴾ إلخ تفصيلاً للمجمل ، وفيه لف في عدم تمييز قول الثالث ثقة بفهم السامع وإلا فالظاهر من قوله فكذبوهما ظاهر الآية سبق إنكار ، وجعل الابتداء باعتبار بقوله الثالث أو المجموع والأول هو الوجه ، وعليه ظاهر الآية يعنى أن هذا الإخبار لما كان عن الثلاثة والمتبادر بشهادة الفاء أن إنكارهم لمقالته لاتحاد مرسلها ومرسله بالكسر والمرسل به والإنكار إذا لم يصرح به ويحتج عليه دون ما يخالفه لاحتمال الرجوع عنه كما وقع لبعضهم فلذا كان تأكيد الأول بالاسمية وإن والثاني بهما مع اللام والقسم "[1].

فالغرض من التأكيد هنا هو علم المرسل الثالث بعدم الاستجابة له .

كما نجد في هذه الآيات ائتلاف الفاصلة مع ما يدل عليه سائر الكلام، فإن ذكر الرسالة مهد لذكر البلاغ والبيان [2] .

وفي قوله:﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾يس(١٥،١٩) .

في هذه الآيات الكريمة العديد من مواضع الفصل ، وإلى ذلك أشار صاحب فتح القدير في قوله جملة ﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ فإنها مستأنفة جواب سؤال مقدر : كأنه قيل فما قال لهم أهل إنطاكية

---

(١) حاشية الشهاب ٢٣٥/٧ .

(٢) الدر المصون للسمين الحلبى : ٤٧٧/٥ ــ ٤٧٨، والإيضاح : ٢١ ، ٢٢ .

فقيل: ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾: أي مشاركون لنا في البشرية فليس لكم مزية علينا تختصون بها .... فأجابهم بإثبات رسالتهم بكلام مؤكد تأكيداً بليغاً لتكرر الإنكار من أهل إنطاكية ، وهو قولهم : ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ فأكدوا الجواب بالقسم الذي يفهم من قولهم : ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ ، وبـ﴿إن﴾ ، وباللام ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ أي ما يجب علينا من جهة ربنا إلا تبليغ رسالته على وجه الظهور ، والوضوح وليس علينا غير ذلك ، وهذه الجملة مستأنفة كالتي قبلها ، وكذلك جملة ﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ فإنها مستأنفة جواباً عن سؤال مقدر : أي إنا تشاءمنا بكم ، لم تجدوا جواباً تجيبون به على الرسول إلا هذا الجواب المبنى على الجهل المبنئ عن الغباوة العظيمة ، وعدم وجود حجة تدفعون الرسل بها[1] .

ونوع الفصل في جميع الآيات السابقة فصل للاستئناف البياني .

وفي قوله تعالى: ﴿مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ ، وقوله : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾ أسلوب قصر حيث قصر الموصوف وهو دعوة الرسل على صفتي البشرية والكذب والتقدير : ما أنتم في دعوى الرسالة إلا بشر تكذبون ، وطريق القصر النفي والاستثناء .

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ أسلوب قصر حيث قصر الموصوفين وهم الرسل على صفة البلاغ المبين ، وطريق القصر النفي والاستثناء .

وفي قوله تعالى: ﴿تَطَيَّرْنَا ... طَائِرُكُمْ﴾ ، لما كانت الطيرة بمعنى

---

(١) فتح القدير : ٤/٣٦٤ .

الشؤم وهي مشتقة من اسم الطير لوحظ فيها مادة الاشتقاق[1]، حيث إن اللفظين متشابهان في اللفظ مختلفان في المعنى فيكون بينهما جناس الاشتقاق، وكذلك الحال بين ﴿أَرْسَلْنَا ... والْمُرْسَلُونَ﴾ .

قال النسفي في تفسيره لمعنى التطير:" وذلك أنهم كرهوا دينهم ونفرت منه نفوسهم ، وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه وقبلته طباعهم ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه ، فإن أصابهم بلاء أو نعمة قالوا بشؤم هذا وبركة ذلك[2] .

فقالوا: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وفي ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ قولان :

الأول : لنشتمنكم من الرجم بالقول وعلى هذا فقوله : ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾ ترقٍ كأنهم قالوا ولا يكتفي بالشتم ، بل يؤدي ذلك إلى الضرب والإيلام الحسي .

وثانيهما : أن يكون المراد الرجم بالحجارة ، وحينئذٍ فقوله : ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾ بيان للرجم ، يعني ولا يكون الرجم رجماً قليلاً نرجمكم بحجر وحجرين ، بل نديم ذلك عليكم إلى الموت وهو عذاب أليم[3] .وقيل هو التعذيب المؤلم من غير تقييد بنوع خاص وهذا هو الظاهر[4] ، وهو ما تميل إليه النفس .

وفي قوله تعالى : ﴿ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم ﴾ حذف جواب الشرط " فقدره سيبويه تتطيرون ، ويونس تتطيروا مجزوماً ، وعلى القولين

---

(١) التحرير والتنوير : ٣٦٤/٢٣ .

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي : ١٣٦/٣ .

(٣) تفسير الرازي ٢٦ / ٥٣ ، وروح المعاني ٣٣٣/٢٢ .

(٤) فتح القدير للشوكاني ٣٦٥/٤ .

جواب الشرط محذوف تقديره : تطيرتم أو توعدتم بالرجم والتعذيب "[1] .

والحذف هنا للإيجاز ، ولدلالة المتقدم على المحذوف ، وقيل : الهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي [2] .

ثم أضربوا (أي المرسلين) عما يقتضيه الاستفهام والشرط من كون التذكير سبباً للشؤم فقالوا: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ والإسراف في الأصل مجاوزة الحد في مخالفة الحق[3] أي أنتم قوم دينكم الإسراف ومجاوزة الحد في الطغيان ومسرفون في تطيركم وكفركم [4] .

وقال تعالى : ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ * وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

﴿ أَقْصَى ﴾ : قصوى القاف والصاد والحرف المعتلّ أصلٌ صحيح يدلُّ على بُعدٍ وإبعاد من ذلك القَصَا: البُعْد ، وهو بالمكان الأقصَى والنَّاحية القُصوَى ، وذهبتُ قَصا فلانٍ، أي ناحيته ، ويقال: أحاطُونا القَصَا ، أي وقفوا منّا بين البعيد والقريب غير أنَّهم مُحيطون بنا كالشَّيءِ يَحُوط الشَّيءَ يحفظه ، وأقصَيتُه: أبعدتُه. والقَصِيَّةُ من الإبل: المودوعة

---

(١) حاشية الشهاب ٢٣٦/٧ .

(٢) إعراب القرآن وبيانه : ٣١٤/٢٢ .

(٣) فتح القدير للشوكاني : ٣٦٥/٤ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن : ١٥ / ١٣ .

الكريمة لا تُجهَد ولا تُركَب، أي تُقصَى إكراماً لها[1] .

وقصَا عنه قَصْوًا وقُصُوًّا وقَصًا ، وقَصِيَ: بَعُدَ، فهو قَصِيّ وقاصٍ، وجمعهما: أَقصاءُ. والقُصوى والقُصْيا: الغاية البعيدة. وأقصاه: أبعده. وقوله تعالى: ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾[2] أي بَيْت المَقْدِس، سمّاه الأقصى اعتباراً بمكان المخاطبين به من النبي ﷺ وأصحابه[3] .

﴿فَطَرَنِي﴾ :

فطر: الفاء والطاء والراء أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على فَتْح شيء وإبرازِه ، من ذلك الفِطْرُ من الصَّوم، يقال: أَفْطَرَ إفطاراً ، وقومٌ فِطْرٌ ،أي مُفْطِرُون، ومنه الفَطْر، بفتح الفاء، وهو مصدرُ فطَرْتُ الشاةَ فَطْراً، إذا حَلَبْتَها، ويقولون: الفَطْر يكون الحلبَ بإصبعَين ، والفِطْرَة : الخِلْقة[4] .

﴿ضَلالٍ﴾ : ضل : الضاد واللام أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على معنىً واحد، وهو ضَياع الشيء وذهابُهُ في غيرِ حَقِّه ، يقال : ضَلَّ يَضِلّ ، لغتان وكلُّ جائرٍ عن القصد ضالٌّ ، والضَّلال والضَّلالَة بمعنى ، ورجلٌ ضِلِّيل ومُضَلَّل، إذا كان صاحبَ ضَلالٍ وباطل [5] ، وعلى هذا يطلق الضلال على العدول عن المنهج المستقيم ، عمداً كان أو سهواً يسيراً كان أو كثيراً .

﴿صيحة﴾ :صيح : الصاد والياء والحاء أصلٌ صحيح، وهو الصَّوت العالي، منه الصِّياح ، والواحدة منه صَيْحة [6] .

---

(١) معجم مقاييس اللغة : ٨٥٩ .

(٢) سورة الإسراء من آية : ١ .

(٣) بصائر ذوي التمييز : ٢٧١/٤ والمعجم الوسيط : ٢/ ٧٤١ .

(٤) بصائر ذوي التمييز : ٢٧١/٤ والمعجم الوسيط : ٢/ ٧٤١ .

(٥) بصائر ذوي التمييز : ٢٧١/٤ والمعجم الوسيط : ٢/ ٧٤١ .

(٦) بصائر ذوي التمييز : ٢٧١/٤ والمعجم الوسيط : ٢/ ٧٤١ .

(الصيحة) الصياح والنفخ في الصور في الآخرة وفي التنزيل العزيز ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ سورة ق (٣٢) ، والصياح مبالغة في الصائح[١] .

وقوله تعالى ﴿وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ يس (٢٠) ، في تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان :

الأول : أنه بيان لكونهم أتوا بالبلاغ المبين حيث آمن بهم الرجل الساعي ، وعلى هذا فقوله تعالى فيه بلاغة باهرة ؛ وذلك لأنه (لما جاء من أقصى المدينة رجل) وهو قد آمن دل على أن إنذارهم وإظهارهم بلغ إلى أقصى المدينة .

الثاني : أن ضرب المثل لما كان لمحمد ﷺ تسلية لقلبه ذكر بعد الفراغ من ذكر الرسل سعى المؤمنين في تصديق رسلهم وصبرهم على ما أوذوا ، ووصول الجزاء الأوفى إليهم ليكون ذلك تسلية لقلب أصحاب محمد ﷺ ، كما أن ذكر المرسلين تسلية لقلب محمد ﷺ .

كما أن لتنكير رجل مع أنه كان معروفاً معلوماً عند الله تعالى تفسيران :

الأول: أن يكون تعظيماً لشأنه أي رجل كامل في الرجولية .

الثاني: أن يكون مفيداً لظهور الحق من جانب المرسلين حيث آمن رجل من الرجال لا معرفة لهم به فلا يقال إنهم تواطؤا ، والرجل هو حبيب النجار على ما ذكره أكثر المفسرين وقد آمن بمحمد ﷺ قبل وجوده حيث صار من العلماء بكتاب الله ، ورأى فيه نعت محمد ﷺ وبعثته[٢] .

وفي قوله تعالى ﴿وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ يظهر وجه تقديم

---

(١) بصائر ذوي التمييز : ٢٧١/٤ والمعجم الوسيط : ٢/ ٧٤١ .

(٢) تفسير الرازي ٢٦ / ٥٤ ـ ٥٥ واللباب ١٦ / ١٩٠ .

﴿أَقْصَى الْمَدِينَةِ﴾ على ﴿رَجُلٌ﴾ إشارة إلى أن الإيمان بالله ظهر في أهل ربض المدينة قبل ظهوره في قلب المدينة ؛ لأن قلب المدينة هو مسكن حكامها وأحبار اليهود وهم أبعد عن الإنصاف والنظر في صحة ما يدعوهم إليه الرسل ، وعامة سكانها تبع لعظمائها بخلاف سكان الأطراف فهم أقرب إلى الاستقلال بالنظر وقلة اكتراث بالآخرين ، فجاء التقديم هنا للاهتمام بالثناء عليهم وتشريفهم وأنه قد يوجد الخير في الأطراف ما لا يوجد في الوسط وأن الإيمان يسبق إليه الضعفاء لأنهم لا يصدهم عن الحق ما فيه أهل السيادة من ترف وعظمة[1] .

وتتمثل بلاغة التقديم والتأخير في قول الإمام عبد القاهر :

" هو بابٌ كثيرُ الفوائد جَمُّ المحاسن واسعُ التصرُّف بعيدُ الغاية لا يزالُ يفتَرُّ لك عن بديعةٍ ويُفضي بكَ إلى لطيفةٍ ، ولا تزالُ ترى شعراً يروقُك مسمَعُه ويَلْطُف لديك موقعُه ، ثم تنظرُ فتجدُ سبباً أنْ راقك ولُطف عندك أنه قُدِّم فيه شيءٌ وحُوِّل اللفظُ عن مكانٍ إلى مكان "[2] .

وبين الله سبحانه وتعالى اهتمام هذا الرجل بالنهي عن المنكر ومسابقته إلى إزالته كما هو الواجب بقوله : (يسعى) أي يسرع في مشيه فوق المشي ودون العدو حرصاً على نصيحة قومه وتبصره للمؤمنين وهداية لهم ليكونوا في النصح باذلين جهدهم[3] .

قوله تعالى : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ* اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ يس (٢٠، ٢١) .

في جملة قوله ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ موضع من مواضع الفصل

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٣٦٥ ، ٣٦٦ .

(٢) دلائل الإعجاز ص١٠٦ .

(٣) تفسير الرازي ٢٦ / ٥٥ ،ونظم الدرر ١٦/١٠٩ .

للاستئناف البياني وإلى ذلك أشار صاحب فتح القدير بقوله :

جملة ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر : كأنه قيل فماذا قال لهم عند مجيئه ؟ فقيل: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ هؤلاء الذين أرسلوا إليكم فإنهم جاءوا بحق ، ثم أكد ذلك وكرره فقال :﴿ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً ﴾ أي لا يسألونكم أجراً على ما جاءوكم به من الهدى ﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ يعني الرسل[1] .

وجملة قوله ﴿ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ كلمة جامعة في الترغيب وفيهم ، أي : لا تخسرون معهم شيئاً من دنياكم وتربحون صحة دينكم فينتظم لكم خير الدنيا وخير الآخرة ، ثم أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم ، ولأنه أدخل في إمحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لروحه[2].

كما في قوله ﴿اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ موضع من مواضع الفصل للبدل ، والبدل هنا بدل الاشتمال وإلى ذلك أشار القزويني في قوله (أن تنزل الثانية من الأولى منزلة بدل الاشتمال ، من متبوعه، كقوله تعالى﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ* اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فإن المراد به حمل المخاطبين على إتباع الرسل وقوله تعالى﴿اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أوفى بتأدية ذلك؟ لأن معناه لا تخسرون معهم شيئاً من دنياكم وتربحون صحة دينكم فينتظم لكم خير الدنيا وخير الآخرة [3] .

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٤/٣٦٥ .

(٢) الكشاف ٣/٢٨٣ .

(٣) الإيضاح للخطيب القزويني ١٥٤ .

في قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ* اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ إنما ختم بقوله ﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ مع تمام الكلام بدونه لزيادة الحث على الاتباع ففيه إطناب[1]، والإطناب هنا من الإيغال ، وقد عرف الخطيب القزويني الإيغال بقوله: هو ختم البيت بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها[2] وهذا الكلام يوحي بأن الإيغال مختص بالشعر ، ولكنه قال بعد ذكره عدة أبيات ، وقيل : لا يختص بالنظم وذكر الآية ، وهذا يدل على أن الإيغال لا يختص بالشعر فقط ، ولكنه يشمل النظم أيضاً ، والغرض من الإيغال هنا زيادة الحث على اتباع المرسلين .

استعطاف القوم بقوله ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ* اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ .. هذا الكلام في غاية الحسن فلما قال اتبعوا المرسلين كأنهم دعوا كونهم مرسلين فنزل درجة وقال لا شك أن الخلق في الدنيا سالكون طريقة الاستقامة ، والطريق إذا كان فيه دليل وجب إتباعه ، والامتناع من الدليل لا يحسن إلا عند أحد أمرين :

إما لطالب الدليل الأجرة ، وإما عدم الاعتماد على اهتدائه ومعرفة الطريق ، لكن هؤلاء لا يطلبون أجرة وهم مهتدون عالمون بالطريق المستقيمة الموصولة إلى الحق فهب أنهم ليسوا بمرسلين هادين أليسوا بمهتدين فاتبعوهم[3] .

ولما أفهم السياق أنه قال فإني اتبعتهم في عبادة الله بنى عليه قوله جواباً لمن يلومه على ذلك ، وترغيباً فيما اختاره لنفسه ، وتوبيخاً لمن

---

(١) إعراب القرآن وبيانه ٣٢١/٢٣ .

(٢) الإيضاح للخطيب القزويني ١٩٢ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٥ / ١٤ ، واللباب ١٩١/١٦ ، ونظم الدرر ١٦ / ١١٠ وروح المعاني ٣٣٨/٢٢ .

يأباه ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يس (٢٢) .

" وإنما صرف الكلام عن خطاب نفسه إلى خطابهم ؛ لأنه أبرز الكلام لهم في معرض المناصحة ، وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم، لأن ذلك أدخل في إمحاض النصح حيث لا يريد لهم إلاّ ما يريد لنفسه، وقد وضع قوله ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ مكان قوله : (وما لكم لا تعبدون الذي فطركم ألا ترى إلى قوله ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ولولا أنه قصد ذلك لقال : الذي فطرني وإليه أرجع ، وقد ساقه ذلك المساق إلى أن قال: ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾[1]) .

فالغرض من الالتفات هنا هو التلطف بهم في مناصحتهم ، وإمحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه .

ويقول ابن الأثير عن القيمة البلاغية للالتفات :

" أن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة أو من الغيبة إلى الخطاب لا يكون إلاّ لفائدة اقتضته وتلك لفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب غير أنها لا تُحدُّ بحدٍّ ولا تُضبَط بضابط "[2] .

وفي قوله ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أضاف الفطرة إلى نفسه والبعث إليهم ، وهو يعلم أن الله قد فطرهم كما يبعثهم جميعاً ؛ لأن إيجاد الله تعالى نعمة يوجب الشكر ، والبعث في القيامة وعيد يوجب الزجر فكانت إضافة النعمة إلى نفسه أظهر في الشكر وإضافة البعث إلى الكافر أبلغ في الزجر[3] .

---

(١) المثل السائر ٢/٢٠٧ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط: صيدا بيروت .

(٢) المرجع السابق ٢/٤ .

(٣) زاد المسير ٧/١٣ ، ونظم الدرر ١٦ / ١١٠ .

ثم أنكر عبادة الأصنام بقوله ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ إشارة إلى نفي غيره فيتحقق معنى لا إله إلا الله ، كما أن في الآية بعض اللطائف .

الأولى : ذكره على طريق الاستفهام فيه معنى وضوح الأمر ، فكلامه هذا يدل على أنه مستغن عن بيان السبب الذي يطالب به عند الإخبار ، فكأنه يقول تفكر في الأمر تفهم من غير إخبار مني .

الثانية : قوله ﴿مِن دُونِهِ﴾ لما بين أنه يعبد الله بقوله : ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾ بين أن من دونه لا تجوز عبادته فإن عبد غير الله وجب عبادة كل شيء مشارك للمعبود الذي اتخذ غير الله ، لأن الكل محتاج مفتقر حادث .

الثالثة : قوله : ﴿أَأَتَّخِذُ﴾ إشارة إلى أن غيره ليس بإله لأن المتخذ لا يكون إلهاً ، ولهذا قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ (الجن: ٣) وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ (الإسراء:١١١) لأنه تعالى لا يكون له ولد حقيقة ولا يجوز ، وإنما النصارى قالوا: تبنى الله عيسى وسماه ولداً فقال: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ (الفرقان:٢) ولا يقال .

قال الله تعالى: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (المزمل:٩) لأن ذلك أمر متجدد ، وذلك لأن الإنسان في أول الأمر يكون قليل الصبر ضعيف القوة . فلا يجوز أن يترك أسباب الدنيا ويقول إني أتوكل ، فلا يحسن من الواحد منا أن لا يشتغل بأمر أصلاً ويترك أطفاله في ورطة الحاجة ولا يوصل إلى أهله نفقتهم ويجلس في مسجد وقلبه متعلق بعطاء زيد وعمرو، فإذا قوي بالعبادة قلبه ونسي نفسه فضلاً عن غيره وأقبل على عبادة ربه بجميع قلبه وترك الدنيا وأسبابها وفوض أمره إلى الله حينئذ يكون من الأبرار الأخيار، فقال الله تعالى لرسوله: أنت علمت أن الأمور كلها بيد

الله وعرفت الله حق المعرفة وتيقنت أن المشرق والمغرب ، وما فيهما وما يقع بينهما بأمر الله، ولا إله يطلب لقضاء الحوائج إلا هو فاتخذه وكيلاً ، وفوض جميع أمورك إليه[1].

وفي قوله تعالى ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ يس (٢٣) خرج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازي مستفاد من السياق وهو النصح والإرشاد.

قال صاحب حاشية الشهاب :

" ثم عاد إلى المساق الأول وهو مناصحة نفسه تلطفاً لإرشادهم ... وفي قوله : ﴿أَأَتَّخِذُ﴾ إشارة إلى أنها ليست بلائقة للألوهية وهو تحميق لهم لأن ما يتخذ ويصنعه المخلوق كيف يعبد ؟!" [2] .

والاستفهام هو طلب الفهم وهو بمعنى الاستخبار وقيل الاستخبار ما سبق أولاً ولم يفهم حق الفهم فإذا سألت عنه ثانياً كان استفهاماً حكاه ابن فارس في فقه اللغة ، وأدواته : (الهمزة ، وهل ، وما ، ومن ، وأي ، وكم ، وكيف ، وأين ، وأنى ، ومتى ، وأيان) وقد توسعت العرب فأخرجت الاستفهام عن حقيقته لمعان أو أشربته تلك المعاني ، ولذلك عده علماء البلاغة والمعاني أحد أقسام الإنشاء وأفردوا له مباحث وأسهبوا في شرحه[3] .

وجملة قوله ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً ... ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً .

وبلاغة الفصل والوصل في القرآن الكريم تتمثل في مقامها المناسب

---

(١) تفسير الرازي ٢٦ / ٥٧ ، ٥٨ ، واللباب ١٦/١٩٣ ، وروح المعاني ٢٢/٣٣٩ .

(٢) حاشية الشهاب ٧/٢٣٧ .

(٣) مفتاح العلوم للسكاكي ص١٤٨ ، وما بعدها ، والإيضاح للخطيب القزويني ص١٣٤ وما بعدها .

لها ، وحسب استدعاء الحال ، وكذلك الحال في جميع الألوان البلاغية من إيجاز وإطناب وخبر وإنشاء وذكر وحذف وتشبيه واستعارة وكناية ... ومثل هذه الأمور لا تمتنع على البلغاء ولكن يحسن استعمالها ووجه تركيبها صارت كأنها فوق اللغة وهذا ما أشار إليه الرافعي في قوله :

(لقد صارت ألفاظ القرآن الكريم بطريقة استعمالها ووجه تركيبها فوق اللغة ، فإن أحداً من البلغاء لا تمتنع عليهم فصح هذه العربية متى أرادها وهي بعد في الدواوين والكتب ولكن لا تقع له مثل ألفاظ القرآن في كلامه. وإن اتفقت له نفس هذه الألفاظ بحروفها ومعانيها ، لأنها في القرآن تظهر في تركيب ممتنع فتعرف به ولهذا ترتفع إلى نوع أسمى من الدلالة اللغوية أو البيانية التي هي طبيعة فيها فتخرج من لغة الاستعمال إلى لغة الفهم وتكون بتركيبها المعجز طبقة عقلية في اللغة)[1] .

ثم استأنف ما يبين بعد ذلك عن فعل العقلاء الناصحين لأنفسهم بقوله مؤكداً له بأنواع التأكيد لأجل إنكارهم له بعدم رجوعهم عن معبوداتهم : ﴿إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ يس (٢٤) يعني إن فعلت فأنا ضالٌ ضلالاً بيناً[2].

ثم صرح بإيمانه تصريحاً لا يبقى بعده شك فقال ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ يس (٢٥) ، ذهب المفسرون في تأويل المخاطب في الآية إلى وجوه :

الأول : أنه خاطب المرسلين ، إذ أقبل القوم عليه يريدون قتله فأقبل هو للمرسلين وقال : إني آمنت بربكم فاسمعوا قولي واشهدوا لي.

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص٢١٩ ، ط : دار الفكر العربي ١٤١٦هـ ، ١٩٩٥م .
(٢) روح المعاني ٢٢/٣٤٠ .

الثاني: هم الكفار كأنه لما نصحهم بما نفعهم قال : آمنت فاسمعون .

ثالثها : بربكم أيها السامعون فاسمعوني على العموم،كقول الواعظ : يا مسكين ما أكثر أملك وما أنزر عملك يريد به كل سامع يسمعه[1] .

كما أكد إعلانه بقوله ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ استدعاءً لتحقيق أسماعهم إن كانوا في غفلة وقيل بمعنى إني أخبرتكم بما فعلت حتى لا يقولوا لم أخفيت عنا أمرك ولو أظهرت لآمنا معك [2] .

في قوله تعالى : ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ موضع من مواضع الفصل لشبه كمال الاتصال ، قال الإمام البيضاوي : والكلام استئناف في حيز الجواب عن السؤال عن حاله عند لقاء ربه بعد تصلبه في نصر دينه .

وقال صاحب الشهاب : الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً ... في جواب: فما قال إذ قيل له ذلك؟ [3] .

وفي قوله: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ كناية عن قتله شهيداً في إعلاء كلمة الله ؛ لأن تعقيب موعظته بأمره بدخول الجنة دفعة بلا انتقال يفيد بدلالة الاقتضاء أنه مات وأنهم قتلوه لمخالفة دينهم[4] .

قال بعض المفسرين: فلما قال هذا القول وصرح بالإيمان وثبوا عليه فقتلوه ، وقيل : وطئوه بأرجلهم ، وقيل حرقوه ، وقيل حفروا له حفرة وألقوه فيها ، وقيل إنهم لم يقتلوه بل رفعه الله إلى السماء فهو في الجنة ، وبه قال الحسن وقيل نشروه بالمنشار[5] .

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٣٦٥/٤ ، والتفسير الكبير للرازي ٦٠/٢٦ .

(٢) تفسير الرازي ٢٦ / ٦٠ ، والتحرير والتنوير ٣٦٩/٢٢ .

(٣) حاشية الشهاب والهامش ٣٧٠/٢٢ .

(٤) التحرير والتنوير ٣٧٠/٢٢ .

(٥) فتح القدير ٣٦٥/٤ .

في قوله تعالى ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ يس (٢٦) « قد حُذِفَ من الكلام ما تواتَرَت الأخبارُ والرواياتُ به وهو أنهم قَتَلوه فقيل له عند مَوْتِه ادْخُلِ الجنةَ » ، وكذا الحال بعد ﴿قِيلَ﴾ فلم يقل (لـه) لأن الغرض بيان المقول لا القول له لظهوره وللمبالغة في المسارعة إلى بيانه ، والجملة استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية حاله ومقاله كأنه قيل كيف كان لقاء ربه بعد ذلك التصلب في دينه والتسخي بروحه لوجهه تعالى فقيل ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ فوقع الحذف لدلالة السياق عليه[1] .

وفي قوله ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ* بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ .

(ما) موصولة والعائد مقدر أي به ، أو الذي غفره لي على أن غفر بمعني الغفران الذي غفر لي والمقصود منه تعظيم مغفرته له فتؤول إلى المصدرية ، وهذا المناسب لقوله:﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ ... أو استفهامية جاءت على الأصل من عدم حذف ألفها إذا جرت فإن اللغة الفصيحة حذفها فرقاً بينها وبين الموصولة وإثباتها شاذ[2] .

وفيها فن ائتلاف الفاصلة مع ما يدل عليه سائر الكلام ، فإن ذكر الجنة مهد لفاصلتها ، وفي ذلك تنبيه عظيم على وجوب كظم الغيظ والحلم عن أهل الجهل والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي والتشمير فيه ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته ، ولمن ترصدوا له وتربصوا به الدوائر ، ونصبوا له الغوائل والمهالك ، هذا من جهة ثم إن في تمنيه أن يعلموا ليروعوا إلى أنفسهم بعد أن ينجلي الريب

---

(١) اللباب ١٩٦/١٦ ، تفسير أبي السعود ٢٩٥/٥ .

(٢) حاشية الشهاب ٢٣٨/٧ .

عن صدورهم وتنجاب الغواشي عن عيونهم فيبدو الصبح لـذي عينـين وتتبدد حنادس الشك والمين ، وفي ذلك انتصار له ، وفوز لدعوته ومـا بعد ذلك غبطة لمستزيد[1].

يخبر الله تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه، غضبًا منه تبارك وتعالى عليهم ؛ لأنهم كذبوا رسله، وقتلوا وليه. ويذكر ــ عز وجل ــ أنه ما أنزل عليهم، وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكـة عليهم، بل الأمر كان أيسر من ذلك[2] .

وهذا ما أشار إليه الله ــ سبحانه وتعالى ــ في قوله ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ* إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ يس (٢٨ ، ٢٩) .

فنجـ في قوله تعالى ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ .

المراد بقوله : وما أنزلنا على قومه من بعده من جند ... إلخ .

إما تغليب لبدر أو المراد لقصد إهلاكهم ، وإن لم يقع لأن الخندق لم يكن فيه قتال واستحقار هلاكهم بعدم إنزال جنده وكونه بصيحة واحـدة فيه إيماء بتعظيم الرسول ﷺ لتخصيصه بقتال الملائكة معه [3] .

وقيل : فيه إشعار أهون من ذلك تصغيراً لشأنهم وتهويناً لأمـرهم وهذا حال الأمم الكافرة فمنهم من أهلك بصيحة كما هو الحال فـي هـذا الموضع ، ومنهم بالريح العاتية ، ومنهم بالإغراق وهكذا ، وفيه دلالـة على أن إنزال الجنود من عظائم الأمور وهم لا يستحقون إلا الإذلال حتى

---

(١) إعراب القرآن وبيانه ٢٣ /٣٢٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ٥٤٦/٣ ، في ظلال القرآن ١٩/٢٣ .

(٣) حاشية الشهاب ٢٣٨/٧ .

مع إهلاكهم ومن هنا نجد أن ما ورد في القرآن الكريم في غـزوة بـدر والخندق من قوله تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾[1] ، وقوله : ﴿بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾[2] ، وقوله تعالى ﴿بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[3] ، وما هو إلا تكريم للنبي ﷺ فهذه الأمور العظيمة لا يؤهـل لها إلا رسول الله ﷺ وما حدثت مع غيره من الأنبياء والمرسلين[4] .

جاء في قوله تعالى : ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ ظاهره أنه استعارة مكنية، والخمود تخيلية ، وقيل تصريحية تبعية في الخمـود بمعنـى البـرودة والسكون ؛ لأن الروح لفزعها من الصحية تندفع إلى الباطن دفعة واحدة ثم تنحصر فتنطفئ الحرارة الغريزية لانحصارها[5] .

---

(١) سورة الأحزاب من آية ٩ .

(٢) سورة آل عمران من الآية : ١٢٤ .

(٣) سورة آل عمران من الآية : ١٢٥ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٦/١٥ .

(٥) حاشية الشهاب ٢٣٨/٧ .

المحور الثالث

أسرار التعبير البلاغي في الآيات الكونية

﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۖ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

﴿حسرة﴾

حسر : الحاء والسين والراء أصلٌ واحد، وهو من كَشْف الشيء والحسرةُ: التلهُّف على الشيء الفائت[1] .

﴿القرون﴾ والقَرْنُ : الأُمّةُ ، والقوم المقترنون في زمن واحد ،

---

(١) العين / ١٨٩ ، ومعجم مقاييس اللغة / ٢٤٥ .

ويقال: عُمْرُ كلِّ قَرْنٍ ستّونَ سنةً ، أو أربعون ، أو ثمانون أو مائة سنة، وأصح هذه الأقوال مائة سنة لقوله ﷺ ــ لغلام (عش قرناً ، فعاش مائة سنة)[1] .

﴿فجر﴾: الفَجْر: شقُّ الشيء شقًّا واسعاً... وقوله تعالى﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ أي شققنا في الأرض[2] .

﴿سبحان﴾: سُبْحان الله : تنزيه لله عن كلِّ ما لا ينبغي أن يُوصَف به ، أو تنزيه لله من الصاحبة والولد ، ونصبه على المصدر أي : أبرئ الله من السوء براءة ، أو في موضع فعل على معنى تسبيحاً لله ، وأصل التسبيح المر السريع في العبادة ، وجعل ذلك في فعل الخير، كما جعل الإبعاد في الشر، والأشياء تسبح وتسجد بعضها بالتسخير، وبعضها بالاختيار كما قال تعالى﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ الإسراء آية: (٤٤) .

وقيل في معناه : السرعة إلى الله والخفة في طاعته[3] .

﴿نَسْلَخُ﴾ : سلخ : الله النهار من الليل ، أو الليل من النهار كشفه وفصله كما في قوله تعالى ﴿اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ يس (٣٧) كما يقال في نزع جلد الحيوان سَلَخ الشاة وكَشَط مِسْلاخها أي إهابها ، ونخلةٌ مِسلاخ ينتشر بُسْرها أخضر[4] .

---

(١) العين / ٧٨٤ ، والمعجم الوسيط ٢/٧٣٠ .

(٢) بصائر ذوي التمييز ٤/١٧٥ ومختار الصحاح ٣٦٣ ، وصفوة البيان لمعاني القرآن ٥٥٩ .

(٣) العين / ٤٠٥ ، وبصائر ذوى التمييز ٣/١٧٢ ــ ١٧٨ .

(٤) بصائر ذوى التمييز ٣/٢٤٥ ، والمعجم الوسيط ١/٤٤٢ .

﴿فلك﴾ : الفَلَك : مَدارُ النجوم والجمع أفْلاك ، والفَلَكُ واحد أفْلاك النجوم .. وفي حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أن رجلاً أتى رجلاً وهو جالس عنده فقال : إني تَرَكْتُ فَرَسَك كأنه يدور في فَلَكٍ ؛ قال أبو عبيدة قوله : ﴿في فَلَكٍ﴾ فيه قولان :

ـ فأما الذي تعرفه العامّة فإنه شبهه بفَلَك السماء الذي تدور عليه النجوم وهو الذي يقال له القُطْب شُبِّه بقُطْب الرَّحى .

ـ وقال بعض العرب الفَلَكُ هو الموج إذا ماج في البحر فاضطرب وجاء وذهب فشبَّه الفرس في اضطرابه بذلك وإنما كانت عَيْباً أصابته[1].

وقال الزجاج في قوله تعالى﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يس آية(٤٠) لكل واحد منهما فلك[2] .

﴿المَشْحُون﴾ :أي المملوء،وشَحَنَ السفينة يَشْحَنُها شَحْناً مَلأها.. وشَحَنَ القومَ يَشْحَنُهم شَحْناً:طردهم.ومَرَّ يَشْحَنُهم أي:يَطْرُدهم ويَشُلُّهم..

قال الأزهري : سمعت أعرابياً يقول لآخر : اشْحَنْ عنك فلاناً ، أي أنَحِّه وأبْعِدْه والشَّحْنُ العَدْوُ الشديد[3] .

﴿متاعاً﴾ : والمتاعُ : ما يستمتع الإنسانُ في حوائجه من أمتعة البيت ونحوه من كلّ شَيْء والدنيا متاعُ الغرور، وكلّ شَيْء تمتعت به فهو متاع، تقول: إنّما العيشُ متاعُ أيّام ثُمَّ يزول، أيْ بقاء أيام .... وقوله تعالى:﴿مَتَاعُ الْحَيَاةِ﴾ الزخرف آية (٣٥) أي منفعتها التي لا تدوم[4] .

---

(١) لسان العرب لابن منظور ١٠/ ٣٢٣ .

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢٨٨/٤ .

(٣) لسان العرب لابن منظور ٧/ ٤٧ ، والمعجم الوسيط ٤٧٤/١ .

(٤) العين ٨٩٥ ، وبصائر ذوى التمييز ٤٧٧/٤ ـ ٤٧٩ .

﴿اتقوا﴾ : التقوى : مشتقّة من الوِقَايَة، وهى حفظ الشئ ممّا يؤذيه، ويضرّه. يقال: وقاه وَقْياً ووِقاية : صانه. والتَّوقية: الكلاءَة، والحفظ .. والتَّقِيّ: المتَّقى، وهو مَن جعل بينه وبين المعاصى وِقاية تحول بينه وبينها: من قوّة عزمه على تركها، وتوطين قلبه على ذلك. فلذلك قيل له: متَّقٍ[1] .

فى قوله تعالى:﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يس (٣٠) " النداء في قوله تعالى:﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ مجاز بتنزيلها منزلة العقلاء... أي الأحوال التي تورث الحسرة ما دلت عليه الآية ، وهو استهزاؤهم بالرسل على أن المراد بالعباد مطلق المجرمين ، أو أهل القرية فالجملة مستأنفة لبيان ما تحسر منه ... وقيل : إن التحسر من الله ولما كانت الحسرة ما يلحق المتحسر من الندم حتى يبقي حسيراً ، وهو لا يليق به تعالى جعلوه استعارة بأن شبه حال العباد بحال من يتحسر عليه فرضاً فيقول يا حسرة على عبادي ... فالنداء للحسرة تعجب منه والمقصود تعظيم جنايتهم "[2] .

وفي قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ يس (٣١) .

بدأت هذه الآية الكريمة بالاستفهام : ومن الواضح أن الاستفهام في القرآن الكريم لا يقع بمعناه الحقيقي إلا نادراً كأن يحكي مواقف على لسان بعض من ذكرهم الله تعالى في كتابه العزيز ، لأن إحاطة علم الله سبحانه شاملة ، فقد يفيد الاستفهام التفخيم ، أو التبكيت ، أو التحقيق ،

---

(١) مختار الصحاح لأبى بكر الرازي ٥٣٥ ، وبصائر ذوي التمييز ٢٩٩/٢ ــ ٣٠٠ .
(٢) حاشية الشهاب ٢٣٩/٧ ، وحاشية ابن التمجيد ١٢٢/١٦ ، وحاشية القونوي ١٢٢/١٦ــ ١٢٣ .

أو الإنكار ، أو التوبيخ ، أو التقرير ، أو غير ذلك من المعاني[1] .

ويجوز في هذه الآية أن يكون الاستفهام إنكارياً ، نزلت غفلتهم عن إهلاك القرون منزلة عدم العلم فأنكر عليهم عدم العلم بذلك وهو أمر معلوم مشهور، ويجوز كون الاستفهام تقريرياً بُني التقرير على نفي العلم بإهلاك القرآن استقصاء لمعذرتهم حتى لا يسعهم إلا الإقرار بأنهم عالمون فيكون إقرارهم أشد لزوماً لهم لأنهم استفهموا على النفي فكان يسعهم أن ينفوا ذلك.

والرؤية على التقديرين علمية وليست بصرية لأن إهلاك القرون لم يكن مشهوداً لأمة جاءت بعد الأمة التي أهلكت قبلها ، وفائدة الاستفهام هنا هو زيادة التخويف لاستحضار تلك الصورة في الإهلاك أي إهلاكاً لا طماعية معه لرجوع إلى الدنيا، فإن ما يشتمل عليه الإهلاك من عدم الرجوع إلى الأهل والأحباب مما يزيد الحسرة اتضاحاً[2] .

وقوله ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ فصلت عما قبلها لأنها بدل اشتمال[3] .

وقوله ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أي بعد الهلاك لا يتركون بل هناك حساب وعقابٌ ولو أن من هلك ترك لكان الموت راحةً [4] .

وفي قوله تعالى ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ يس (٣٣) يفيد التنكير معني التفخيم والتعظيم ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ﴾ أي آية عظيمة باهرة من آيات الله الدالة على قدرته ، كقول العرب : إن له لغنماً يقصدون الكثرة ، ويتكرر هذا في مواطن

---

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري / محمد حسنين أبو موسى ٢٩٥ ــ ٢٩٩ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٣ / ١٠ .

(٣) الكشاف ٢٨٥/٣ .

(٤) اللباب ٢٠٧/١٦ ، ونظم الدرر ١٦ / ١١٨ ، وتنوير الأذهان ٣١٨/٣ .

كثيرة[1] . وتتعلق الآية بما قبلها من وجهين :

الأول : لما قال: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ﴾ كان ذلك إشارة إلى الحشر ، فذكر ما يدل على إمكانه قطعاً لإنكارهم واستبعادهم وعنادهم ، فقال: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ كذلك نحيي الموتى .

الثاني : أنه لما ذكر حال المرسلين وإهلاك المكذبين وكان شغلهم التوحيد ذكر ما يدل عليه ، وبدأ بالأرض لكونها لا مفارقة لهم منها عند الحركة والسكون[2] ، وفي قوله : ﴿ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ﴾ الطباق بين الموت والإحياء[3] .

وتقديم الظرف في قوله﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ للدلالة على أن الحب هو الشيء الذي يتعلق به معظم العيش ويقوم بالارتزاق منه صلاح الإنس ، وإذا قل جاء القحط ووقع الضرّ،وإذا فقد جاء الهلاك ونزل البلاء[4]،ثم قال تعالى﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ يس (٣٤)

أي جعلنا في الأرض جنات من أنواع النخل والعنب ، وخصصهما بالذكر لأنهما أعلى الثمار وأنفعها للعباد[5] .

ولما كانت هذه الجنات لا تصلح إلا بالماء وكان طبع الماء الغور في التراب والرسوب لشدة السريان إلى أسفل فكان فورانه إلى جهة العلو أمراً باهراً للعقل لا يكون إلا بقسر قاسرٍ حكيم قال ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾

---

(١) صفوة التفاسير ١٧/٣ ، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٢٦١ .

(٢) تفسير الرازي ٢٦ / ٦٥ ، واللباب ١٦ ــ ٢١١ .

(٣) صفوة التفاسير ١٧/٣ .

(٤) الكشاف ٢٨٥/٣ ، ٢٨٦ .

(٥) فتح القدير ٣٦٨/٤ .

وهذا يدل على أن الأرض مركبة على الماء ، فكل موضع منها صالح لأن ينفجر منه الماء ، ولكن الله يمنعه عن بعض المواضع بخلاف الأشجار ليس فيها شيء غالباً على الأرض ، وفي ذلك تذكير بالنعمة في حبس الماء عن بعض الأرض لتكون موضعاً للسكن ، ولو شاء لفجر الأرض عيوناً كما فعل بقوم نوح ﷺ فأغرق الأرض كلها[1] .

ولابد في هذا المقام أن نذكر ماء زمزم المبارك في حرم الله الآمن إذا قامت عليه حياة الناس في مكة المكرمة ويقول النبيﷺ " خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم فيه طعام من الطعم وشفاء من السقم "[2] ، وقد وردت نصوص كثيرة على فضل هذا الماء المبارك[3] .

وقوله تعالى ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ يس (٣٥) .

عاد الضمير في قوله : ﴿ مِن ثَمَرِهِ ﴾ على النخل والأعناب فالضمير إما لما ذكر ليشملهما فإن الضمير قد يجري مجرى اسم الإشارة ...وقيل: هو لله وإضافته له لأنه خالقه فالمعنى ليأكلوا مما خلقه الله ومما عملوه بأيديهم ، ففيه التفات من التكلم إلى الغيبة ، واعترض عليه بأنه ليس من مظان الالتفات ، لأن المقصود من الجنات وتفجير مياهها ثمرها فالتمكين من الانتفاع بأكله أولى بالتفخيم الدال على الامتنان ، فالظاهر إضافته لضمير التعظيم بأن يقال ثمرنا ، ورد بأنه ذهب عليه أن ما سبق أفخم لأنها أفعال عامة النفع ظاهرة في كمال القدرة والتمر أحط مرتبة

---

(١) الوسيط ٥٣١/٣ ، والجامع لأحكام القرآن ١٨/١٥ ونظم الدرر ١٦ / ١٢٥ .

(٢) معجم الطبراني الكبير ٩٨/١١ .

(٣) البلد الحرام فضائل وأحكام ، إعداد كلية الدعوة في جامعة أم القرى ، ص٧١ ــ ٧٦ ، وأخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ " خير ماء على وجه الأرض زمزم فيه طعام من الطعم وشفاء من السقم " الدر المنثور ١٥١/٤ ط.دار الفكر.

من الحب فلا يستحق التفخيم ، ولذا لم يرد على أسلوب الاختصاص وجعل من خلق الله، وقيل: لكون كماله بفعل العبد لا يستحق ذلك التعظيم، وليس المقصود مما ذكر أولاً التمر حتى ينبو عنه كما توهم بل الاستدلال على الصانع القدير ومنع دلالته على كمال القدرة مكابرة وفهم انحطاط مرتبته من التأخير لا ينافي الدلالة بوجه آخر والأحسن أن الأكل والتعيش مما يشغل عن الله فيناسب الغيبة كما نبه على غفلتهم عن المنعم بقوله : ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ فالالتفات واقع في موقعه[1] .

فالغرض البلاغي من الالتفات هنا هو أن الأكل والتعيش مما يشغل عن ذكر الله ــ سبحانه وتعالى ــ فناسب ذلك الغيبة .

في قوله تعالى ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ جاء الاستفهام إنكاراً واستقباحاً لعدم شكرهم للنعم المعدودة واتخاذهم للذي أوجد هذا الصنع العجيب أنداداً ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي : أيرون هذه النعم أو يتنعمون بها فلا يشكرونها ، وجيء بالمضارع مبالغة في إنكار كفرهم بأن الله حقيق بأن يكرروا شكره فكيف يستمرون على الإشراك به[2] .

وفي قوله تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ يس (٣٦) .

يوجد في هذه الآية الكريمة ترتيب للمعاني ويقول عنه الدكتور/ أبو موسى :

" هذا اللون من البلاغة جدير بالاهتمام ، وهو في صميمه نظر في المعاني وتتابعها وكيف يمهد سابقها للاحقها وسار عليه نسق الجمل وترتيبها في القرآن الكريم ، ووجه ترتيب بعضها على بعض إما لأنها

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٢٤٠ .

(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٩٨.

أدل على الغرض المسوق له الكلام ، أو لأنها تدل على الأكثر عدداً، أو يتقدم منها ما هو أكثر أثراً في حياة الناس المادية والروحية ، أو غير ذلك من الأسباب[1] .

والترتيب بين المعاني أو صحة التفسير هو أن يأتي المتكلم في أول كلامه بمعنى لا يستقل الفهم بمعرفة فحواه فإما أن يكون مجملاً يحتاج إلى تفصيل ، أو موجهاً يفتقر إلى توجيه ، أو محتملاً يحتاج المراد منه إلى ترجيح لا يحصل إلا بتفسيره وتبيينه ووقع التفسير في الكلام على أنحاء تارة يأتي بعد الشرط أو بعد ما فيه معنى الشرط ، وطوراً بعد الجار والمجرور وآونة بعد المبتدأ الذي التفسير خبره ، وقد أتت صحة التفسير في هذه الآية مقترنة بصحة التقسيم واندمج فيها الترتيب والتهذيب ، فكان فيها فنون فقدم الله سبحانه ﴿مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ﴾ من النبات والشجر ، وانتقل على طريق البلاغة إلى الأعلى فثنى بأشرف الحيوان وهو الإنسان ليستلزم ذكره بقية الحيوان ثم ثلث بقوله ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ فانتقل من الخصوص إلى العموم ليندرج تحت العموم[2] .

وقال صاحب الظلال في هذه الآية " وهذه التسبيحة تنطلق في أوانها وفي موضعها؛ وترتسم معها حقيقة ضخمة من حقائق هذا الوجود. حقيقة وحدة الخلق..وحدة القاعدة والتكوين.. فقد خلق الله الأحياء أزواجاً.النبات فيها كالإنسان. ومثل ذلك غيرهما..﴿ ومما لا يعلمون ﴾. وإن هذه الوحدة لتشي بوحدة اليد المبدعة. التي توجد قاعدة التكوين مع اختلاف الأشكال والأحجام والأنواع والأجناس ، والخصائص

---

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٣٨٢ وما بعدها .

(٢) حاشية القونوي ١٣٣/١٦ ، إعراب القرآن وبيانه ٢٣ / ٣٢٦ .

والسمات ، في هذه الأحياء التي لا يعلم علمها إلا الله "[1].

وبعد النظر في آيات الأعيان الحسية الدالة على القدرة الباهرة لاسيما البعث انتقل إلى دلالة مظاهر العوالم العلوية على دقيق نظام الخالق فيها مما تؤذن به المشاهدة مع التبصر[2] .

فقال تعالى ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ يس (٣٧) .

عطف قوله تعالى ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ على قوله ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ﴾والغرض من العطف هنا:" بيان لقدرته الباهرة في الزمان بعدما بينها في المكان "[3] .

" ومن في قوله:﴿مِنْهُ﴾ قيل: ابتدائية أو تبعيضية أو سببية ... وقال الراغب : نسلخ منه النهار ننتزع وحقيقته نزع جلد الحيوان ، وهو متعد بمن لا بعن"[4] وهذا هو السبب في إيثار لفظ ﴿من﴾ دون غيره . في هذه الآية استعارة والمراد نخرج من النهار ونستقصي تخليص أجزائه من أجزائه حتى لا يبقى من ضوء النهار شئ مع ظلمة الليل فإذا الناس قد دخلوا في الظلام وهذا معنى قوله ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ كما يقال أفجروا إذا دخلوا في الفجر ، والسلخ إخراج الشئ مما لابسه والتحم به فكل واحد من الليل والنهار متصل بصاحبه اتصال الملابس بأبدانها والجلود بحيوانها ففي تخليص أحدهما من الآخر حتى لا يبقى منه معه طرف عليه منه أثر آية باهرة ودلالة قاهرة ، لذلك شبه تبرؤ الليل من النهار بانسلاخ الجلد عن الجسم المسلوخ ، وذلك أنه لما كانت هوادى

---

(١) في ظلال القرآن ٢٣/٢٣، ٢٤ .

(٢) نظم الدرر ١٢٨/١٦ .

(٣) حاشية الشهاب ٧ / ٢٤١ .

(٤) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة .

الصبح عند طلوعه ملتحمة بأعجاز الليل أجرى عليها اسم السلخ ، وكان ذلك أولى من أن يقال نخرج مثلاً ، فالجامع بينهما الإزالة والتعرية فكما أن الشاة تتعرى حين ينسلخ إهابها ، كذلك الليل إذا انسلخ عنه النهار زال ضوؤه وبدت ظلمته الحالكة تغمر الكون بسوادها فسبحان الله رب العالمين[1] ، والاستعارة هنا تصريحية تبعية ، وقد جوز فيها أن تكون مكنية وتخيلية[2] .

وقد أشار علماء الجغرافيا إلى أن الانسلاخ يكون تدريجياً على الكرة الأرضية وذلك في :

" دوران الأرض حول محورها يعد مقياساً طبيعياً لقياس الوقت ، حيث يسمح لبعض الأماكن باستقبال ضوء النهار ، بينما تكون أماكن أخرى في الليل وتدور الأرض دورتها اليومية من الغرب إلى الشرق ، حيث يبدأ النهار عندما تظهر الشمس فوق الأفق ثم تتحرك إلى أعلى نقطة في قوس مسارها ، ثم تهبط باتجاه الأفق الغربي حيث يعقبه الليل وبالتالي يتغير اتجاه وطول ظل الأشياء، إذ يحدث أطول ظل في أول النهار ويكون اتجاهه ناحية الغرب ثم يأخذ في القصر تدريجياً حتى يصبح أقصر ظل عندما تكون الشمس في أعلى وضع لها في السماء " السمت" ثم يأخذ الظل في الطول التدريجي مرة أخرى حتى يصل إلى أطول ظل في آخر النهار عند مغيب الشمس ويكون اتجاهه ناحية الشرق[3] .

---

(١) انظر المثل السائر لابن الأثير ١/٤٠٠، وتلخيص البيان في مجازات القرآن ص٢٢٩ ـ ٢٣٠ .

(٢) حاشية الشهاب ٧ / ٢٤١ .

(٣) انظر كتاب الجغرافية الطبيعية المعاصرة ص٥٠ تأليف د/ عبد الفتاح صديق ، د / دلال زريقات ، ط : دار الناشر الدولي .

والمتأمل فيما ذكر سابقاً يجد أن دوران الأرض ينتج عنه السماح لبعض الأماكن باستقبال ضوء النهار بينما تكون أماكن أخرى في الليل ، وهذا يدل على أن انسلاخ الليل عن النهار شئ تدريجي على الكرة الأرضية ، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم من ألف وأربعمائة عام في قوله ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ من التوشيح فمن سمع في صدر الآية انسلاخ النهار من الليل علم أن الفاصلة تكون مظلمون لأن من انسلخ النهار عن ليله أظلم أي دخل في الظلمات ما دامت تلك الحال .

والتوشيح فن من فنون البديع وهو أن يكون في أول الكلام معنى إذا علم علمت منه القافية إن كان شعراً ، أو السجع إن كان نثراً ، بشرط أن يكون المعنى المتقدم بلفظه من جنس معنى القافية ، أو السجعة بلفظه ، أو من لوازم لفظه[1] ، والتوشيح هنا من رد عجز الكلام على صدره وفي قوله تعالى ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ يس (٣٨) .

قوله: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي... ﴾ إلخ معطوف على جملة ﴿ اللَّيْلُ نَسْلَخُ ... ﴾ إلخ لأنه من آيات قدرته ، وإنما جعل مجازاً عما ذكر لدوام حركتها فلا قرار لها فالمستقر على هذا اسم مكان تقطعه في حركتها الدائمة ثم تعود، ووجه الشبه على هذا الانتهاء إلى محل معين وإن كان للمسافر قرار دونها وهذا ما تقطعه في السنة ... وإما مجاز عن الحركة البطيئة أو هو باعتبار ما يتراءى...مجاز أو استعارة لوقوفها وسكونها[2] .

---

(١) إعرابه القرآن وبيانه ٢٣ / ٣٢٩ .

(٢) حاشية الشهاب ٧ / ٢٤١ .

وفي قوله ﴿تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لها﴾ أربعة أقوال :

أحدهما: إلى موضع قرارها ، روى أبو ذر ﷺ قال « سألت رسول الله ﷺ عن قوله ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لها﴾ قال « مستقرُّها تحت العَرْش »وقال" إنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربها فتستأذن في الطلوع فيؤذن لها " [1] .

الثاني : أن مستقرها مغربها لا تجاوزه ولا تقصر عنه. قاله مجاهد.

الثالث : لوقت واحد لا تعدوه .قاله قتاده ، وقال مقاتل : لوقت لها إلى يوم القيامة.

الرابع : تسير في منازلها حتى تنتهي إلى مستقرها الذي لا تجاوزه، ثم ترجع إلى أول منازلها قاله ابن السائب ، وقال ابن قتيبة : إلى مستقر لها ومستقرها أقصى منازلها في الغروب وذلك لأنها لا تزال تتقدم إلى أقصى مغاربها ثم ترجع[2] .

وذلك الجري والاستقرار بتقدير الله العزيز الغالب، وهو بكمال القدرة يغلب ، العليم كامل العلم أي الذي قدر على إجرائها على الوجه الأنفع وعلم الأنفع فأجراها على ذلك[3] .

قال تعالى :﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ يس (٣٩) .

في قوله تعالى ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ ليس تقديم المفعول به على الفعل من باب الاختصاص ، وإنما هو من باب مراعاة نظم الكلام ، فإنه قال﴿ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ ثم قال ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي ﴾ فاقتضى حسن النظم أن يقول:﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ ليكون الجميع على نسق واحد في

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ٦/٢١٤ .

(٢) زاد المسير ٧/١٨ ، ١٩ .

(٣) تفسير الرازي ٢٦/٧٢ .

النظم أي أن تبدأ الجمل كلها بالأسماء المتناسبة [1] .

والتشبيه المرسل ورد في قوله تعالى ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ فقد مثل الهلال بأصل عذق النخلة ، والعذق بكسر العين، هو الكباسة والكباسة عنقود النخل وهو تشبيه بديع للهلال ، فإن العرجون إذا قدم دق وانحنى واصفر ، وهي وجوه الشبه بين الهلال والعرجون فهو يشبهه في رأي العين في الدقة لا في المقدار والاستقواس والاصفرار [2] .

قال تعالى ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يس (٤٠) .

من أغراض تقديم المسند إليه [3] ، كون ذكره أهم إما لأنه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه ، وإما ليتمكن الخبر في ذهن السامع لأن في المبتدأ تشويقاً إليه كقوله :

وَالَّذي حارَتِ البَرِيَّةُ فِيهِ
حَيَوَانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِن جَمادِ

وإما لتعجيل المسرة أو المساءة لكونه صالحاً للتفاؤل أو التطير نحو: سعد في دارك ،والسفاح في دار صديقك ، أو غير ذلك ففي قوله تعالى : ﴿لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القَمَرَ ﴾ قدم المسند إليه لتقوية الحكم المنفي فإنه أبلغ من أن يقول :

لا ينبغى للشمس أن تدرك القمر ، وأكد في إفادة أنها مسخرة لا

---

(١) المثل السائر لابن الأثير ٣٧/٢ ، ٣٨ ، من بلاغة القرآن ص١٤٤ .

(٢) البحر المحيط ٣٢٢/٧ والتحرير والتنوير،٢٣ /٢٢ ، إعراب القرآن وبيانه ٣٢٩/٢٣ .

(٣) الإيضاح للخطيب القزويني ص٥٩ تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي ، ط: مؤسسة المختار ـ القاهرة .

يتيسر لها إلا ما أريد لها[1] .

وفي قوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ فقد جاءت الاستعارة في الإدراك للشمس والسبق لليل والنهار ، ليبين ما هو مقرر في علم الجغرافيا من دوران الشمس والقمر والأرض ، وتكون الليل والنهار ، وجعل الشمس غير مدركة ، والقمر غير سابق لأن الشمس ثابتة لا تدور إلا دورة لم تعرف مدتها حول شئ مجهول لنا بالكلية ولها أيضاً دورة على محورها كالأرض تقطعها في خمسة وعشرين يوماً ... أما القمر فله حركتان إحدهما حول محوره وثانيتهما حول الأرض ، وكل منهما يتجه من المغرب إلى المشرق ، ويقطع مداره حول الأرض في تسعة وعشرين يوماً ونصف تقريباً وهذا هو المسمى بالشهر القمري وكانت الشمس جديرة بأن توصف بالإدراك لتباطؤ سيرها والقمر خليق بأن يوصف بالسبق لسرعة سيره[2] ، فاستعير هنا الإدراك لتباطؤ سير الشمس ، واستعار السبق لسرعة سير القمر ، وحذف المشبه وهو التباطؤ والسرعة ، وصرح بلفظ المشبه به وهو الإدراك والسبق ، والاستعارة هنا تصريحية أصلية .

وبعد بيان قدرة الله سبحانه وتعالى وجبروته في أرضه وسمائه وملكوته من خلال دوران الأجرام السماوية كل بحسب ما قدره الله وقضاه بلا تصادم ولا تقاطع ثم ختمت هذه الآية بقوله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ عطفاً على جملة ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ .. والواو عاطفة ترجيحاً لجانب الإخبار بهذه الحقيقة على جانب التذييل، وإلا فحق التذييل الفصل وجيء بضمير ﴿يَسْبَحُونَ﴾ ضمير جمع مع أن المتقدم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٢٣ ، وصفوة التفاسير ١٧/٣ .

(٢) إعراب القرآن وبيانه ٣٢٩/٢٣ ، ٣٣٠ .

ذكره شيئان هما الشمس والقمر ؛ لأن المراد إفادة تعميم هذا الحكم للشمس والقمر وجميع الكواكب وهي حقيقة علمية سبق بها القرآن الكريم .

وجملة ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ فيها محسن الطرد والعكس فإنها تقرأ من آخرها كما تقرأ من أولها[1] .

فتنزيل غير العاقل منزلة العاقل في قوله ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ من باب التغليب فقد عبر عن الشمس والقمر والكوكب بضمير جمع المذكر ، والذي سوغ ذلك وصفهم بالسباحة لأنها من صفات العقلاء[2] .

والإعجاز في ترتيبها وعدم تقاطع حروفها مع بعضها لتكون أكثر انسجاماً مع تكوين الأفلاك والكواكب ، فكل كوكب يسير بفلكه الذي قدره الله ــ سبحانه وتعالى ــ ومع حركتها المستمرة فإنها لا تتصادم ، وفي ذلك آية من آيات الله -عز وجل- في خلقه وبرهان ساطع على قدرته فتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم ذكر الله ــ سبحانه وتعالى ــ نوعاً آخر من النعم التي امتن بها على عباده فقال تعالى ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ يس (٤١ ، ٤٦) .

ففي قوله تعالى ﴿ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ مجاز مرسل والمجاز هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له في اصطلاح التخاطب لعلاقة بين الثاني

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/٢٥ ، ٢٦ .

(٢) صفوة التفاسير ٣/١٧ .

والأول مع قرينة تمنع إرادة المعنى الأصلي .

فالمجاز المرسل : هو الكلمة المستعملة قصداً في غير معناها الأصلي لملاحظة علاقة غير المشابهة مع قرينة دالة على عدم إرادة المعنى الوضعي[1] .

وفي قوله ﴿ حَمَلْنَا ﴾ أطلق الحَمل على الإنجاء من الغرق على وجه المجاز المرسل لعلاقة السببية والمسببية، أي أنجينا ذرياتهم من الغرق بحملهم في الفُلك حين الطوفان[2] ، كما أن تعدية ﴿حَمَلْنَا﴾ إلى الذريات تعدية على المفعولية المجازية وهو مجاز عقلي فإن المجاز العقلي لا يختص بالإسناد بل يكون في التعليق فإن المحمول الذريات لا الذريات وأصولها ملابسة لها.

ولما كانت ذريات المخاطبين مما أراد الله بقاءه في الأرض حين أمر نوحاً بصنع الفلك لإنجاء الأنواع وأمره بحمل أزواج من الناس هم الذين تولد منهم البشر بعد الطوفان نُزّل البشر كله منزلة محمولين في الفلك المشحون في زمن نوح، وذكر الذريات يقتضي أن أصولهم محمولون بطريق الكناية إيجازاً في الكلام، وأن أنفسهم محمولون كذلك كأنه قيل: إنا حملنا أُصولهم وحملناهم وحملنا ذرياتهم، إذ لولا نجاة الأصول ما جاءت الذريّات، وكانت الحكمة في حمل الأصول بقاء الذريات فكانت النعمة شاملة للكل، وهذا كالامتنان في قوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَآءُ حَمَلْنَاكُمْ فِى الْجَارِيَةِ ﴾ الحاقة آية (١١) فنجد في هذه الآية مجاز وإيجاز وإعجاز[3] .

والضمير في مثله في قوله ﴿خَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ يعود على

---

(١) جوهرة البلاغة ، ٢٩٢ وما بعدها .

(٢) التحرير والتنوير ٢٣/٢٦ ، ٢٧ .

(٣) المرجع السابق ٢٣/٢٧ ، ٢٨ .

الفلك فإما أن يراد بالمثل ما اصطنعوه بعد ذلك من وسائل الركوب أو أنه مقتصر على الإبل ، لأنهم كانوا يسمونها سفائن الصحراء[1] .

ثم ذكر الله تعالى لطفه بعباده حين ركوبهم تلك السفينة فقال ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ أي وإن نشأ إغراقهم في الماء مع ما حملته السفن فلا مغيث لهم يحفظهم من الغرق وينجيهم من الموت ولكن رحمة منا بهم وتمتعاً لهم إلى حينٍ بلذات الحياة الدنيا أبقيناهم وحفظناهم من الغرق[2] .

ويوجد في هذه الآية سلامة الاختراع وهى الإتيان بمعنى لم يسبق إليه كما في قوله ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾ فإن نجاتهم من الغرق برحمة من الله تعالى هي بحد ذاتها متاع يستمتعون به ، ولكنه على كل حال إلى أجل مقدر يموتون فيه فلا مندوحة لهم عنه فهم إن نجوا من الغرق فلن ينجوا مما يشبهه أو يدانيه والموت لا تفلوت فيه[3] .

ومن هذا المعنى اقتبس أبو الطيب المتنبي في قصيدة قالها بمصر بعد أن أصابته الحمى منها هذا البيت[4] :

وَإِنْ أَسْلَمْ فَمَا أَبْقَى وَلَكِنْ

سَلِمْتُ مِنَ الحِمَامِ إلى الحِمَامِ

أي أسلمت من الموت بهذا المرض إلى الموت بمرض أو سبباً آخر[5].

---

(١) إعراب القرآن وبيانه ٢٣/٣٣٢ .

(٢) تفسير المراغي ٢٢/ ١٥ .

(٣) إعراب القرآن وبيانه ٢٣/٣٣٣ .

(٤) ديوان المتنبي ٢/٢١٦ .

(٥) إعراب القرآن وبيانه ٢٣ / ٣٣٣ .

ويقول تعالى مخبراً عن تمادي المشركين في غـيهم وضـلالهم وعـدم اكتراثهم بذنوبهم التي أسلفوها وما يستقبلون بين أيديهم ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يس (٤٥) ، قال ابن عباس ﷺ : ما بين أيديكم يعني الآخرة فاعملوا لهـا ، ومـا خلفكـم يعنـي الـدنيا فاحذَرُوها ولا تغترّوا بها[١] ، وعلى هذا يكون بين قوله تعالى ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ طباق . ووجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعـالى لما عدد الآيات بقوله :﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ . . ﴾، ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ. . ﴾، ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا . . ﴾ وكانت الآيات تفيد اليقين وتوجب القطع بمـا قـال الله تعالى ، قال فلا أقل من أن يحترزوا عن العذاب فإن من أخبـر بوقـوع عذاب يتقيه ، وإن لم يقطع بصدق قول المخبر احتياطاً فقـال تعـالى إذا ذكر لهم الدليل القاطع لا يعترفون به وإذا قيل لهم اتقوا لا يتقون فهم في غاية الجهل ونهاية الغفلة ، لا مثل العلماء الذين يتبعون البرهـان ، ولا مثل العامة الذين يبنون الأمر على الأحوط ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بحرف التمني أي في ظنكم فإن من يخفى عليه وجـه البرهان. لا يترك طريقة الاحتراز والاحتياط [٢] .

وقوله تعالى ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ يس (٤٦) أي من دلالة تدل على صدق الرسول ﷺ فـإنهم لا يتأملونهـا ولا يقبلونـها ولا ينتفعون بها[٣] .

وصيغة المضارع للدلالة على التجدد ... والمراد بـالإعراض عـدم

---

(١) زاد المسير ٢٣/٧ .

(٢) تفسير الرازي ٨٢/٢٦ .

(٣) زاد المسير ٢٣/٧ وتفسير ابن كثير ٥٥١/٣ .

الالتفات إليها وترك النظر الصحيح[1] ، وأسلوب الآية يفيد القصر ، ونوع القصر هنا قصر صفة وهي الإعراض على الموصوفين وهم المشركون ، وطريق القصر النفي والاستثناء ، وفي هذا دلالة واضحة على شدة إعراضهم .

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٤/٣٧٢ .

المحور الرابع
أسرار التعبير البلاغي في الآيات التي تتحدث عن جحيم أهل النار ونعيم أهل الجنة

﴿قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ يس من الآية : ٤٧ إلى ٦٨ .

﴿الأَجْدَاثُ﴾: الجَدَثُ : القَبْرُ ، والجمع أجْداثٌ ... وذكر الزبيدى أن للقَبْرِ أسماء:الجَدَثُ ، والجَدَفُ ، والرَّمْسُ ، والبَيْتُ ، والضَّرِيحُ، والرَّيْمُ ، والرَّجَمُ ، والبَلَدُ[1].

﴿يا ويلنا﴾ : وَيْلٌ : كلمة مثل وَيْحٍ ، إلا أنها كلمة عذاب ، يُقال : وَيْلَه ووَيْلَك ووَيْلِي ، وفي الندبة : وَيْلاَه .. وويلٌ: كلمةُ عذاب؛ وواد فى جهنَّم أو بئر فيها، أو بابٌ من أبواب جهنَّم. ومن قال بهذه الأقوال لم يُرِدْ أنَّ وَيْلاً فى اللُّغة موضوعٌ لهذا، وإنما أراد مَنْ قال الله تعالى ذلك له فقد استَحَقَّ مَقَرّاً في النَّار، وثبت له ذلك، قال الله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ البقرة آية (٧٣) [2] .

﴿المجرمون﴾: الجُرْمُ : التَّعدِّي ، والجُرْمُ : الذنب ، والجمع أَجْرامٌ وجُرُومٌ ، وهو الجَرِيمَة ... والمُجْرِم المذنب قوله تعالى ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ﴾ المائدة (٢ ،٨) جاء في التفسير ولا يحملنكم بغض قوم أن تعتدوا[3].

﴿الشيطان﴾ : الشَّطَنُ بفتحتين الحبل وقال الخليل: هو الحبل الطويل وجمعه أشْطانٌ و الشَّيْطانُ معروف وكل عات متمرد من الإنس والجن والدواب شيطان والعرب تسمي الحية شيطاناً[4]، وقيل: اشتقاق الشيطان من: شاط يَشِيطُ: احترق غضبًا، لكونه مخلوقًا من قُوَّة النَّار[5] .

---

(١) لسان العرب ١٩٧/٢ ، تاج العروس للزبيدي ٦٠٩/١ .

(٢) الصحاح لإسماعيل حماد الجوهرى ١٨٤٦/٥، وبصائر ذوي التمييز ٢٨٩/٥ ــ ٢٩٠ .

(٣) لسان العرب ٢٥٨/٢ ، وبصائر ذوي التمييز ٣٥٥/٢ ، وتاج العروس ٢٢٤/٨ .

(٤) مختار الصحاح ٢٥٢ .

(٥) بصائر ذوي التمييز ٣/ ٣١٩ ، ٣٢٠ .

﴿الختم﴾: خَتَم يختِمُ خَتْماً أي : طبَع فهو خاتِم والختمُ مصدر ختَمت . وهو تأثير الشئ كنقش الخاتَم ، والثانى: هو الأثر الحاصل عن الشئ. وتُجوّز بذلك تارة فى الاستيثاق من الشئ والمنع منه اعتباراً بما يحصل من المنع بالخَتْمِ على الكُتُب والأبواب؛ نحو قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ سورة البقرة (٧)[١] .

﴿لمسخناهم﴾: المَسْخُ: تحويل صورة إلى ما هو أقبحُ منها. يقال: مَسَخَهُ الله قرداً. والمَسيخُ من الرجال: الذي لا ملاحَةَ له، ومن اللحم الذي لا طعم له[٢]

﴿ نُنَكِّسْهُ ﴾: نكَسْتُه أنْكُسُه نَكْساً : قلبته ، وولد منكوس أن تخرجَ رجلُه قبل رأسه .

والنُّكْسُ : العَوْدُ في المَرَض نُكِسَ في مَرَضه نُكْساً .

والنِّكْسُ من القوم : المُقَصِّر عن غاية النَّجْدة والكَرَم والجميعُ الأنْكاس[٣]، نَكَسْتُ الشَّيْءَ : قَلَبْتُه على رأسه ، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ الأنبياء (٦٥) قال الفرّاء: أى رَجَعُوا عمّا عَرَفُوا من الحُجَّة لإبراهيم عليه السلام وقال الأزهري: أى قلبوا[٤] .

لما كانت الرحمة بالرزق والنصر إنما تنال بالرحمة للضعفاء وكان الإنفاق خلق المؤمنين ، قال مبيناً أنهم انسلخوا عن الإنسانية جملة فلا يخافون ما يجوز وقوعه من العذاب ، ولا يرجون ما يجوز حلوله من

---

(١) العين : ٢٣١ .

(٢) لسان العرب ١٠٢/١٣ .

(٣) العين: ٩٨٦ .

(٤) بصائر ذوي التمييز ١٢٢/٥ .

الثواب[1] ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ يس (٤٧) .

الاستفهام في قوله ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾ خرج عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازي مستفاد من السياق وهو الإنكار ، " وذلك لأنهم أنكروا وجوده ، وهم المعطلة المنكرون لوجود الباري ... ولذا أظهر في مقام الإضمار وقوله بعده ﴿ لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ ﴾ لا ينافي ذلك لأنه تهكم أو مبني على اعتقاد المخاطبين .

وقال تعالى ﴿ أَنُطْعِمُ ﴾ ولم يقل أننفق إما لأنه المراد من الإنفاق أو نطعم بمعنى نعطي ، أو لأنه يدل على منع غيره بالطريق الأولى ... وإن كان الاستفهام الإنكاري صريحاً فيه لأن مرادهم المنع مطلقاً "[2] .

وقوله : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ حيث أمرتمونا ما يخالف مشيئة الله ويجوز أن يكون جواباً من الله لهم أو حكاية لجواب المؤمنين[3] .

ولما ذكر قلة خيرهم المستندة إلى تهكمهم باليوم الذي ذكروا به بالأمر بالاتقاء والتعليل بترجي الرحمة ، أتبعه حكاية استهزاء آخر منهم دال على عظيم جهلهم بتكذيبهم بما يوعدون على وجه التصريح بذلك اليوم والتصوير له بما لا يسع من له أدنى مسكة غير الانقياد له[4] .

فقال : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يس (٤٨) ، وهذا إشارة إلى ما اعتقدوه أن التقوى المأمور بها في قوله :﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ

---

(١) نظم الدرر : ١٦ / ١٣٦ ، ١٣٧ .

(٢) حاشية الشهاب ٧ / ٢٤٥ .

(٣) تفسير البيضاوي ٧ / ٢٤٥ .

(٤) نظم الدرر ١٣٨/١٦ .

اتَّقُوا ﴾ والإنفاق المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا ﴾ لا فائدة فيه لأن الوعد لا حقيقة له وقوله : متى يقع الموعود به[1] .

والاستفهام في قوله ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ ﴾ كناية عن التهكم والتكذيب[2].

لما سألوا عن الموعود به قال تعالى ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ يس (٤٩) .

في قوله :﴿ يَخِصِّمُونَ ﴾ محذوف تقديره : يخصم بعضهم بعضاً فحذف المضاف والمفعول به .... ويجوز أن يكون المعنى يخصمون مجادلهم عن أنفسهم فحذف المفعول ، ومعنى يخصمون يغلبون في الخصام خصومهم[3] ففي الآية إيجاز بالحذف .

وقد ذكر الإمام الرازي أمورا تدل على هول هذه الصيحة وعظمها فقال :

أحدها : التنكير يقال لفلانٍ مالٌ أي كثير وله قلبٌ أي جريء .

وثانيها : واحدة أي لا يحتاج معها إلى ثانية .

وثالثها : تأخذهم أي تعمهم بالأخذ وتصل إلى من في مشارق الأرض ومغاربها ، ولا شك أن مثلها لا يكون إلا عظيماً[4] .

ولما كانت هذه النفخة المميتة ، سبب عنها قوله تعالى : ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ يس (٥٠) أي لا يستطيع أن يوصيه بالتوبة والإقلاع عن المعاصي ؛ بل يموتون في أسواقهم ومواضعهم[5] .

---

(١) نظم الدرر ١٣٨/١٦ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٣/٢٣ .

(٣) حاشية الشهاب ٧ / ٢٤٦ .

(٤) تفسير الرازي ٢٦ / ٨٧ .

(٥) فتح القدير ٣٧٣/٤ .

ولما دل ذلك على الموت قطعاً ، عقبه بالبعث فقال ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ يس (٥١) وعبر عن المستقبل بلفظ الماضي حيث قال ﴿ وَنُفِخَ ﴾ تنبيهاً على تحقق وقوعه[١] .

ولما تشوفت النفس إلى سماع ما يقولون إذا عاينوا ما كانوا ينكرون ، استأنف قوله: ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ يس (٥٢) فالفصل في هذه الآية الكريمة للاستئناف ، وقد سبق بيانه .

ففي قوله تعالى ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ استعارة لأن المرقد هنا عبارة عن الممات فشبهوا حال موتهم بحال نومهم ؛ لأنها أشبه الأشياء بها وكذلك شبه حال الاستيقاظ بحال الإحياء والنشور[٢] .

والاستعارة هنا أبلغ من الحقيقة لأن النوم أكثر من الموت والاستيقاظ أكثر من الإحياء بعد الموت لأن الإنسان الواحد يكرر عليه النوم واليقظة مرات وليس كذلك حال الموت والحياة[٣] ، والاستعارة هنا تصريحية ؛ لأنه صرح فيها بلفظ المشبهة به وهو الرقاد ، وأصلية ؛ لأن المرقد اسم ، أما إذا جعلناه اسم مكان فتكون الاستعارة تبعية[٤] .

كما أن في هذه الآية الكريمة إيجاز بالحذف ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ ﴾

---

(١) فتح القدير ٣٧٤/٤ .

(٢) تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضى : ٢٣٠ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) إعراب القرآن وبيانه ٣٣٩/٢٣ .

أي : تقول لهم الملائكة هذا ما وعدكم به الرحمن[1] .

قال تعالى : ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ* فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يس (٥٣، ٥٤) .

أي ما كانت تلك النفخة المذكورة إلا صيحة واحدة صاحبها إسرافيل بنفخة في الصور ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أي فإذا هم مجموعون محضرون لدينا بسرعة للحساب والعقاب ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ من النفوس ﴿شَيْئاً﴾ مما تستحقه ، أي لا ينقص من ثواب عملها شيئاً من النقص ولا تظلم فيه بنوع من أنواع الظلم ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي إلا جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا ، أو إلا بما كنتم تعملونه أي بسببه ، أو في مقابلته[2] ، وفي هاتين الآيتين أسلوب قصر مستفاد من قوله : ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ ، وقوله : ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ففي قوله: ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قصر الموصوف وهو الصيحة على الصفة وهي واحدة ، ونوع القصر قصر الموصوف على الصفة ، وطريق القصر النفي والاستثناء .

وفي قوله: ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قصر صفة الجزاء على الموصوف وهو العمل ، ونوع القصر قصر صفة على موصوف ، وطريق القصر النفي والاستثناء ، والغرض من القصر في الآيتين هو التأكيد .

ولما قرر أن الجزاء من جنس العمل ، شرع في تفصيله ، وبدأ

---

(١) صفوة التفاسير ١٧/٣ .

(٢) فتح القدير ٣٧٤/٤ .

بأشراف الحزبين في جواب من سأل عن هذا الجزاء[1]، قال :﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ يس (٥٥) .

قوله تعالى ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ...﴾ كلام مستأنف مسوق لتقرير أحوال أهل الجنة إغاظة للكفار ، وتقريعاً لهم ، وزيادةً في ندامتهم وحسرتهم[2] ، فالفصل هنا للاستئناف .

في قوله تعالى ﴿ شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ تنكير وإبهام الغرض منه :

التنويه بأن ما هم فيه من شغل أعلى من أن ترقي إليه رتبة البيان، أو لا يستطيع وصفه اللسان كما أن في إبهامه إيجازاً انطوى تحته ما لا يعد ولا يحصى من ضروب النعيم والملذات التي يستمتعون بها في الجنان، وأن ما عداها يعد كلا شئ ، كما أن فيه تصويراً لما أعده الله لعباده المتقين من المتعة وأفانين اللذة من افتضاض أبكار، وسماع أوتار، وتزاور في العشايا والأسحار ، وقد أكده بأنهم فاكهون ناعمون ، لا يشغل بالهم ما يشغل بال أهل الدنيا من تصاريف الحياة ، ومشاغل السنين ، ولا ينغص صفوهم همّ طارئ أو غمّ نازل وأن كل ما تمتد إليه الأعين وتسافر نحوه الظنون من صنوف الكرامة حاضر لديهم ينالونه وهم متكئون على الأرائك متمددون تحت الظلال مما ورد وصفه مجسداً وذلك كله على طريق الكناية[3].

ولما كانت النفس لا يتم سرورها إلا بالقرين الملائم قال ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ يس (٥٦) هذه الآية مستأنفة مسوقة

---

(١) نظم الدرر ١٤٥/١٦ .

(٢) إعراب القرآن وبيانه ٣٤١/٢٣ .

(٣) حاشية القونوي ١٦٥/١٦، ١٦٤، حاشية ابن التمجيد ١٦٥/١٦ ـ١٦٧ ، إعراب القرآن وبيانه ٣٤٣/٢٣ .

لبيان كيفية شغلهم وتفكههم وتكميلها بما يزيدهم سروراً وبهجة من كون أزواجهم معهم على هذه الصفة من الاتكاء على الأرائك[1] .

قال تعالى : ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ* سَلَامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ يس (٥٧ ، ٥٨) جملة ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ مبينة لما يتمتعون به في الجنة من المآكل والمشارب ونحوها[2] ، فالفصل هنا للبيان .

والتعميم في قوله ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ إشارة إلى كون زمان الاختيار بيدهم وكونهم مالكين وقادرين ، ولهم ما يدعون أي ما يتمنون وقيل دعاؤهم مستجاب[3] ، وبعد هذه النعمة جاءهم بأكمل الأشياء وأعظمها وهو آخرها الذي لا شئ فوقه فقال ﴿سَلَامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ وهذا منى أهل الجنة أن يسلم الله عليهم .

قوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ فصل عما قبله لأنه من ﴿ما﴾ في قوله ﴿ مَا يَدَّعُونَ ﴾ وهو : " إما بدل كل من كل على ، أن ما أريد بها خاص ، أو على ادعاء الاتحاد تعظيماً ، أو بعض على أنها عامة "[4] فالفصل هنا للبدل .

كما ورد التنكير في قوله تعالى ﴿ سَلَامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ فجاءت ﴿سَلَامٌ ﴾و ﴿رَّبٍّ﴾نكرتين للتعظيم بل إن التعظيم متلاحق في هذه الآية لأنها خلت تماماً من المعانى التى تأتي به (أل) التعريف أو ما يتعلق بالكلمة من ضمائر فجئ بـ ﴿سَلَامٌ﴾ نكرة منونة بالرفع للدلالة

---

(١) فتح القدير ٣٧٦/٤ .

(٢) تفسير الرازي ٢٦ / ٩٣ .

(٣) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة .

(٤) حاشية الشهاب ٢٤٨/٧ .

على الدوام حيث حذف خبر ﴿سَلَامٌ﴾ لنيابة المفعول المطلق وهو قوله ﴿قَوْلاً﴾ عن الخبر لأن تقديره: سلام يقال لهم قولاً من الله، والذي اقتضى حذف الفعل ونيابة المصدر عنه هو استعداد المصدر لقبول التنوين الدال على التعظيم، والذي اقتضى أن يكون المصدر منصوباً دون أن يؤتى به مرفوعاً هو ما يشعر به النصب من كون المصدر جاء بدلاً عن الفعل[1] .

وكذا الحال مع تنوين ﴿رَبٍّ﴾ للتعظيم، ولأجل ذلك عدل عن إضافة ﴿رَبٍّ﴾ إلى ضميرهم، واختير في التعبير عن الذات العلية بوصف الرب لشدة مناسبته للإكرام والرضى عنهم بذكر أنهم عبدوه في الدنيا فاعترفوا بربوبيته[2] .

وينتقل من حال المحسنين إلى النظر في حال المجرمين فقال تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ يس (٥٩) .

قوله ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ من عطف الإنشاء على الخبر فهو إما بتقدير : ويقال امتازوا على أنه معطوف على يقال المقدر العامل في ﴿ قولاً ﴾ وهو أقرب وأقل تكلفاً لأن حذف القول وقيام معموله مقامه كثير حتى قيل فيه هو البحر حدث عنه ولا حرج ، أو يقال : إنه من عطف القصة على القصة ... المعطوف مؤول بخبر لأن المراد أن المجرمين ممتازون متفرقون ليسوا كأهل الجنة مع أهلهم وأزواجهم وعدل عنه إلى الأمر لما فيه من التهويل والتعنيف[3] .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/٤٤ .

(٢)المرجع السابق نفس الجزء والصفحة.

(٣) حاشية الشهاب ٧ / ٢٤٨ .

قيل : أي انقطعوا عن المؤمنين وتميزوا منهم ، وقيل إن المجرم يرى منزلة المؤمن ورفعته ويرى ذلة نفسه فيتحسر فيقال : امتازوا اليوم ... وقيل يميزون بسيماهم ، ويظهر على جباههم ، أو في وجوههم سواد[1] ، كما قال تعالى ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ﴾ الرحمن (٤١) ولما ذكر الله تعالى حال المجرمين كان لقائل أن يقول : إن الإنسان كان ظلوماً جهولاً والجهل من الأعذار فقال الله ذلك عند عدم الإنذار وقد سبق إيضاح السبل بإيضاح الرسل وعهدنا إليكم وتلونا عليكم ما ينبغي أن تفعلوه وما لا ينبغي[2] .

لذا ورد قوله تعالى ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ يس (٦٠) مفصولاً، والفصل هنا لشبه كمال الاتصال.

والعهد في قوله : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ ﴾ استعارة لإقامة البراهين ، وقيل : إنه حقيقة لأنه عبارة عما عهده في عالم الذر إذ قال لهم ألست بربكم ، ولذا قال يا بنى آدم ... والعبادة عبادة الشيطان فالتجوز في النسبة إلى السبب ، ويجوز أن يكون استعارة بتشبيه طاعته بعبادته[3] .

وفي معنى العهد وجوه :

أقواها : ألم أوصِ إليكم ، واختلفوا في هذا العهد فقيل : هو العهد الذي كان مع آدم عليه السلام في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰ ءَادَمَ﴾ طه: ١١٥. وقيل : هو الذي كان مع ذرية آدم عليه السلام حين أخرجهم وقال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا

---

(١) الدر المصون ٥/ ٤٩١ ، معالم التنزيل للبغوي ١٢/٦ ، زاد المسير ٣٠/٧ ، اللباب ٢٥٠/١٦ .

(٢) تفسير الرازي ٩٩/٢٦ .

(٣) حاشية الشهاب ٢٤٨/٧ .

بَلَى ﴾ ، وقيل : مع كل قوم على لسان رسولهم وهو الأظهر ، وقوله ﴿ لاَّ تَعْبُدُواْ الشَّيطَانَ ﴾ أي لا تطيعوه والطاعة قد تطلق على العبادة ثم قال: ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر العداوة ووجه عداوته أنه حين أكرم الله تعالى آدم عليه السلام عاداه إبليس[1] .

وقد وردت جملة ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ مفصولة عما قبلها ؛ لأنها تعليل لما قبلها من النهى عن طاعة الشيطان .

ولما بكتهم بالتذكير بما ارتكبوا مع النهي عن عبادة العدو تقديماً لدرء المفاسد ، وبخهم بالتذكير بما ضيعوا مع أخذ العهود من واجب الأمر بعبادة الولي فقال عاطفاً على ﴿ أَن لَّا ﴾[2] ، فقال تعالى ﴿ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ يس (٦١) .

وفي قوله تعالى ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ... وَأَنْ اعْبُدُونِي ﴾ جمع بين معنيين متقابلين في الجملة فالأول سلب والآخر إيجاب[3] .

كما أن في هاتين الآيتين تقديماً وتأخيراً وهو تقديم النهي على الأمر أي الانتهاء عن عبادة الشيطان والامتثال بعبادة الله ، لأن حق التخلية التقدم على التحلية[4] .

ومن البلاغة أيضاً تنكير ﴿صراط ﴾ للتفخيم والإيجاز أي هذا صراط بليغ في استقامته جامع لكل ما يجب أن يكون عليه ، وأصل المرتبة يقصر عنها التوصيف والتعريف ، ولذا لم يقل هذا الصراط المستقيم ، أو

---

(١) اللباب ٢٥٢/١٦ .

(٢) نظم الدرر ١٥٣/١٦ .

(٣) صفوة التفاسير ٢٣/٣ .

(٤) حاشية ابن التمجيد ١٧٣/١٦ والجدول ٢٧/٢٣ .

هذا هو الصراط المستقيم ، وإن كان مفيداً للحصر[1] .

ثم ذكر سبحانه عداوة الشيطان لبني آدم فقال ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ يس (٦٢) .

وقوله ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً﴾ كلامٌ مستأنفٌ ، مسوقٌ لتشديد التوبيخ ، وتأكيد التقريع[2]، والاستفهام في قوله ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ إنكاري للتوبيخ والتقريع عن عدم كونهم يعقلون إذ لو كانوا يدركون ويعقلون لتفطنوا إلى إيقاع الشيطان بهم في مهاوي الهلاك،وقيل: الاستفهام لتقرير النفي أي لم تكونوا تعقلون لاختلال عقولكم والنفي ليس بمتوجه إلى الدوام الدال عليه كان ، بل الكلام لدوام النفي بأن لو حظ أولاً النفي ثم الدوام ثانياً ففيه تنبيه على أنهم كالأنعام مسلوب عنهم العقل والإدراك التام[3] .

وفي قوله ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ* اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ يس (٦٣، ٦٤) .

كلامٌ مستأنفٌ ، مسوقٌ لمجابهتهم بالمصير الهائل الذي يصيرون إليه بعد أن بلغ الغاية في توبيخهم وتقريعهم[4] فالفصل هنا للاستئناف .

والمراد بقوله تعالى ﴿ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي قاسوا حرها اليوم ، وادخلوها وذوقوا أنواع العذاب فيها بما كنتم تكفرون ... وهذا الأمر أمر تنكيل وإهانة كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ الدخان (٤٩).

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه ٢٧/٢٣ .

(٢) إعراب القرآن وبيانه ٣٤٥/٢٣ .

(٣) التحرير والتنوير ٤٩/٢٣ ، وصفوة التفاسير ٢٣/٣ .

(٤) إعراب القرآن وبيانه ٣٤٥/٢٣ .

بين قوله تعالى ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وقوله ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة للإيذان بأن أفعالهم القبيحة مستدعية للإعراض عن خطابهم ... ، وقيل ختم على أفواههم لأجل أن يكون الإقرار من جوارحهم لأن شهادة غير الناطق أبلغ في الحجة من شهادة الناطق لخروجه مخرج الإعجاز ، وقيل ليعلموا أن أعضاءهم التي كانت عوناً لهم في معاصي الله صارت شهوداً عليهم ، وجعل ما تنطق به الأيدي كلاماً وإقراراً لأنها كانت المباشرة لغالب المعاصي ، وجعل نطق الأرجل شهادة لأنها حاضرة عند كل معصية[1] .

وفي قوله تعالى ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ﴾ كناية عن منعهم من التكلم ، ولا مانع من أن يكون هناك ختم على أفواههم حقيقة ، ويجوز أن يكون الختم مستعاراً لمعنى المنع بأن يشبه إحداث حالة في أفواههم مانعة من التكلم بالختم الحقيقي ، ثم يستعار له الختم ، ويشتق منه نختم فالاستعارة تبعية،أي اليوم نمنع أفواههم من الكلام منعاً شبيهاً بالختم[2].

وقوله تعالى ﴿ وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ* وَلَوْ نَشَاء لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ يس (٦٦، ٦٧). عطف على جملة ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَاذَا الْوَعْدُ﴾ يس:(٤٨) . وموقع هاتين الآيتين من التي قبلهما أنه لما ذكر الله إلجاءهم إلى الاعتراف بالشرك بعد إنكاره يوم القيامة كان ذلك مثيراً لأن يهجس في نفوس المؤمنين أن يتمنوا لو سلك الله بهم في الدنيا مثل هذا الإلجاء فألجأهم إلى الإقرار بوحدانيته وإلى تصديق رسوله واتباع دينه، فأفاد الله أنه لو تعلقت

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٣٧٨/٤ .

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه ٢٩/٢٣ .

إرادته بذلك في الدنيا لفعل، إيماء إلى أن إرادته تعالى تجري تعلقاتها على وفق علمه تعالى وحكمته[1] .

ومفعول المشيئة محذوف أي لو نشاء أن نطمس على أعينهم لطمسنا[2] .

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا ﴾ استعارة والمراد بالطمس هنا إذهاب نور الأبصار حتى يبطل إدراكها تشبيهاً بطمس حروف الكتابة حتى تشكل قراءتها ، وفيه أيضاً زيادة معنى لأنه يدل على محو آثار عيونهم مع إذهاب أبصارها وكف أنوارها[3] .

وقيل : الطمس بمعنى المسح ، أي لمسحنا أعينهم حتى تصير ممسوحة ، وهو مجاز في الإسناد أي لأمرنا مسحهم كما في قصة لوط ولقد راودوه عن ضيفه ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ القمر آية (٣٧) مع أن الطامس جبريل عليه السلام [4].

وحرف الاستعلاء﴿على﴾ للدلالة على تمكن الطمس، وإلا فإن طَمسَ يتعدى بنفسه... و﴿أَنَّى﴾ استفهام بمعنى (كيف) وهو مستعمل في الإنكار، أي لا يبصرون وقد طمست أعينهم، أي لو شئنا لعجلنا لهم عقوبة في الدنيا يرتدعون بها فيقلعوا عن إشراكهم[5]،﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ على صيغة الأمر:أي فيقال لهم استبقوا ، وفي هذا تهديد لهم ثم كرر التهديد لهم فقال ﴿وَلَوْ نَشَاء لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ ﴾ المسخ تبديل الخلقة

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣ / ٥١ .

(٢) فتح القدير ٣٧٨/٤ .

(٣) تلخيص البيان في مجازات القرآن: ٢٣٠ .

(٤) حاشية القونوي ١٧٨/١٦ .

(٥) التحرير والتنوير ٥١/٢٣، ٥٢ .

إلى حجر أو غيره من الجماد أو بهيمة ، والمكانة المكان أي لو شئنا لبدلنا خلقهم على المكان الذي هم فيه[1] .

وفي قوله تعالى ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ الطباق في (مُضِيّاً...و يَرْجِعُونَ) أي فما استطاعوا انصرافاً إلى ما خرجوا إليه ولا رجوعاً إلى ما أتوا منه بل لزموا مكانهم لزوال العقل الإنساني منهم بسبب المسخ ، ونجد أن مقتضى المقابلة بين هذين المعنيين أن نقول (ولا رجوعاً) ، ولكن عدل إلى ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ لرعاية الفاصلة فجعل قوله ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ عطفاً على جملة ﴿ما استطاعوا﴾وليس عطفاً على ﴿مُضِيًّا﴾ لأن فعل استطاع لا ينصب الجمل ، والتقدير: فما مضَوْا ولا رجعوا فجعلنا لهم العذاب في الدنيا قبل عذاب الآخرة وأرحنا منهم المؤمنين، وتركناهم عبرة وموعظة لمن بعدهم[2] .

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ يس (٦٨).

المعنى إنه يصير إلى حال الهرم الذي يشبه حال الصبا ، وقال سفيان إذا بلغ ثمانين سنة تغير جسمه وضعفت قوته فطول العمر يصير الشباب هرماً ، والقوة ضعفاً ، والزيادة نقصاً ، وهذا هو الغالب. وقد تعوذ ﷺ من أن يرد إلى أرذل العمر ومن فعل هذا بكم قادر على بعثكم ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾[3].

والنكس في هذه الآية استعارة وحقيقته قلب الأعلى أسفل ، أو ما يقرب من الأسفل، قال تبارك وتعالى ﴿نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ﴾ السجدة آية (١٢)

---

(١) فتح القدير ٣٧٨/٤ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٣/٢٣ ، ٥٣ ، وصفوة التفاسير ٢٣/٣ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٣٥/١٥ وتفسير ابن كثير ٥٥٥/٣ .

ويطلق مجازاً على الرجوع من حال حسنة إلى سيئة، ولذلك يقال: فلان نكس، إذا كان ضعيفاً لا يرجى لنجدة، وهو فَعِل بمعنى مفعول كأنه منكوس في خلائق الرجولة، فـ﴿نُكِّسْهُ﴾ مجاز لا محالة إلا أنا نجعله مجازاً في الإذلال بعد العزة وسوء الحالة بعد زهرتها ، وقيل : المراد من هذه الاستعارة إعادة الشيخ الكبير إلى حال الطفل الصغير في الضعف بعد القوة ، والتثاقل بعد النهضة تشبيهاً بمن انتكس على رأسه فصار أعلاه سفلا وأسفله علواً[1] .

أما قوله: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ فهو استئنافٌ إنكاريٌ لعدم تأملهم في عظيم قدرة الله تعالى الدالة على أنه لو شاء لطمَس على أعينهم ولو شاء لمسخهم على مكانتهم ... لأن تلك الجملة الشرطية لا تخلو من مواجهة بالتعريض للمتحدث عنهم فكان حرياً بهم أن يعقلوا مغزاها ويتفهموا معناها[2] .

---

(١) تلخيص البيان في مجازات القرآن ٢٣١ ، والتحرير والتنوير ٢٣/٥٤ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٣/٥٥ .

المحور الخامس

أسرار التعبير البلاغي في الآيات التي تتحدث عن النبي ﷺ وموقفه من الشعر

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى

ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن
مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً
وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ
إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ
وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾
سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ
يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا
صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ
جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ
نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ
لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ
لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ
نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا
خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا
رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟
مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ
مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ
ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ
خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ

بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا ﴾ : الذُّلُّ نقيض العزّ ، واستَذْلُوه رأوه ذَليلاً ويُجْمَع الذَّليل من الناس أَذِلَّة وذُلاّلاً والذُّلُّ الخسَّة وأَذَلَّه واستَذَلَّه كله بمعنى واحد وتَذَلَّل له أي خَضَعَ[1].

﴿ يَحْزُنُكَ ﴾: الحَزَنُ والحُزْن : خشونة في النفْس لما يحصل فيها من الغمّ ، ويضادّه الفرح .

ولاعتبار الخشونة بالغمّ قيل خشَّنتُ بصدره إذا حَزَنته ، وقوله ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ ليس بنهيٍ عن تحصيل الحزن، لأَن الحزن ليس يدخل باختيار الإنسان. ولكن النهى في الحقيقة إنما هو عن تعاطى ما يورث الحزن واكتسابه[2] .

﴿ نُطْفَةٍ ﴾ : النطفة ماء الرجل والجمع نطف : والعرب تقول للمُويْهة القليلة نُطفة وللماء الكثير نُطفة وهو بالقليل أخص وبه سمي المنيُّ نُطفة لقلته[3] .

﴿ خَصِيمٌ ﴾ : الخَصْم مصدر خَصَمته أى نازعته. والخَصْم: المخاصِم المنازع، والجمع خُصوم وخِصَام وأَخصام. وقد يكون للاثنين

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٥/٥٥ .

(٢) بصائر ذوي التمييز ٢/٤٥٨ .

(٣) لسان العرب لابن منظور ١٤/١٨٧ .

والجمع والمذكَّر والمؤنَّث. قال تعالى: ﴿هذانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُواْ﴾ الحج(١٩) أي فريقان. والخصيم: الخَصْم الكثير المخاصمة[١] :

﴿ وَنَسِيَ ﴾: قال الفراهيدي : " نَسِيَ فلانٌ شيئاً كان يَذْكُرُهُ ، وإنه لنسيٌّ ، أي : كثير النسيان ، من قوله جل وعز ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ مريم (٦٤) والنَّسْي الشيء المَنْسِيّ الذي لا يُذكر[٢] .

والنِسيانُ: الترك. قال الله تعالى: ﴿نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾التوبة (٦٧)[٣].

﴿ أَنشَأَهَا ﴾: أَنْشَأه الله أي : خَلَقَه ، ونَشَأَ يَنْشَأُ نَشْأً ونُشُوءاً ونَشَاءً ونَشْأَةً ونَشَاءة حَيي ، وأَنْشَأَ اللّهُ الخَلْقَ أي: ابْتَدَأَ خَلْقَهم ، وفي قوله تعالى ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى﴾ النجم (٤٧) أي البعثة[٤] .

وفي قوله تعالى ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾ يس (٦٩) .

عطف قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ ﴾ على قوله ﴿ وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ والغرض من العطف هنا هو " الرد على قولهم إن محمداً شاعر والمراد : ما علمناه الشعر بتعليم القرآن فإنه لا يماثله لفظاً ولا معنى لأنه غير مقفى ولا موزون "[٥] .

ويقول الرافعي " وهل ترى ذلك أعجب من أن الله تعالى منع نبيهﷺ تصحيح وزن الشعر ، وجعل لسانه لا ينطق به إذا وضعه موضع البلاغة

---

(١) بصائر ذوي التمييز ٥٤٧/٢ .

(٢) العين للفراهيدي ٩٥٨ .

(٣) مختار الصحاح لأبي بكر الرازي ٥٤٥ ط : المؤسسة الخيرية للكتاب طرابلس ، لبنان .

(٤) لسان العرب ١٣٤/١٤ .

(٥) حاشية الشهاب ٢٥٠/٧ .

من وحيه ، ونصبه نصب البيان لدينه ؛ لأنه تعالى يعلم من غيب المصلحة لعباده ، أنه ﷺ لو أقام وزن بيت مال به عمود الدين ثم لتصدع له الأساس الاجتماعي العظيم الذي جاء به القرآن الكريم ، إذ يكون قد بنى على غير أركان ولا عماد محكم[1] .

ولما كان الغرض الأساسي من دعوة الرسول ﷺ تبليغ الرسالة والموعظة ، قال تعالى ﴿ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ ﴾

وجملة ﴿إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ﴾ استئناف بياني لأن نفي الشعر عن القرآن يثير سؤال متطلب يقول: فما هو هذا الذي أوحي به إلى محمد ﷺ فكان قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ﴾ جواباً لطلبته ... وجيء بصيغة القصر المفيدة قصر الوحي على الاتصاف بالكون ذكراً وقرآناً قصر قلب، أي ليس شعراً كما زعمتم والذكر: مصدر وصف به الكتاب المنزل على محمد ﷺ وصفاً للمبالغة، أي إن هو إلا مُذكّر للناس بما نسوه أو جهلوه[2].

قال تعالى ﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ يس (٧٠) .

فصلت جملة قوله ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً﴾ عن قوله ﴿إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ﴾ لقوة الاتصال بينهما لأن جملة ﴿لِيُنذِرَ﴾ لبيان أن الغرض من نزول القرآن الإنذار والتبليغ .

وفي هذه الآية الكريمة مقابلة والمقابلة : هي أن يذكر لفظان فأكثر ثم أضدادها على الترتيب ومن خواص المقابلة أنه إذا شرط في الأول

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٢٩٥ ، ط : دار الفكر العربي .

(٢) التحرير والتنوير ٢٣ / ٦٥ .

أمراً شرط في الثاني ضده[1] .

فقد قابل بين الإنذار والإعذار وبين المؤمنين والكفار ؛ أي بين من كان حياً مؤمناً منتفعاً بالإنذار لنجاته ، وبين من كان كافراً كالميت الذي لا يصغى إلى الزواجر ليدرأ عنه العذاب لكن ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[2]، أي وجب العذاب على المصرين على الكفر الممتنعين من الإيمان بالله وبرسله[3] .

ثم بين الله سبحانه وتعالى عظيم قدرته وإحسانه على عبيده بقوله : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ يس (٧١) .

الاستفهام في قوله ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا . . . ﴾ إنكار وتعجب من عدم رؤيتهم شواهد النعمة، فإن كانت الرؤية قلبية كان الإنكار جارياً على مقتضى الظاهر، وإن كانت الرؤية بصرية فالإنكار على خلاف مقتضى الظاهر بتنزيل مشاهدتهم تلك المذكورات منزلةَ عدم الرؤية لعدم جريهم على مقتضى العلم بتلك المشاهدات الذي ينشأ عن رؤيتها ورؤية أحوالها[4].

وفي قوله تعالى ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ ذكر الأيدي وإسناد العمل إليها استعارة تفيد مبالغة في الاختصاص والتفرد، وقد خص الأنعام بالذكر لما فيها من بدائع الفطرة ،وكثرة المنافع ولاسيما الإبل، أو يكون المعنى أن هذه الأنعام خلقناها بقوى تقديرنا ومتقن تدبيرنا إذ لا طاقة لأحد من المخلوقين عليها[5] ، ومن مظاهر

---

(١) معترك الأقران ٣١٥/١ ، ٣١٦ ، وجواهر البلاغة ٣٦٧ .

(٢) صفوة التفاسير ٢٣/٣ .

(٣) فتح القدير ٣٨٠/٤ .

(٤) التحرير والتنوير ٦٧/٢٣ .

(٥) تلخيص البيان في مجازات القرآن ٢٣١ .

قدرته أيضاً قوله ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ* وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ يس (٧٢، ٧٣) .

وفي خلال هذا الامتنان إدماج شيء من دلائل الانفراد بالتصرف في الخلق المبطلة لإشراكهم إياه غيره في العبادة وذلك في قوله:﴿أَنَّا خَلَقْنَا﴾ وقوله: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ وقوله: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا﴾ وقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ﴾وقوله:﴿لَهُمْ﴾هو محل الامتنان،أي لأجلهم،فإن جميع المنافع التي على الأرض خلقها الله لأجل انتفاع الإنسان بها تكرمة له...، وفرع على هذا التذكير والامتنان قوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ استفهاماً تعجيبياً لتركهم تكرير الشكر على هذه النعم العِدّة فلذلك جيء بالمضارع المفيد للتجديد والاستمرار[1] .

ثم ذكر جهلهم فقال ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ يس(٧٤) ، أي لتمنعهم من العذاب ثم أخبر أن ذلك لا يكون بقوله:﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ يس (٧٥) .

وجملة﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ فصلت عما قبلها لأنها (مستأنفة لبيان بطلان ما رجوه منها وأملوه من نفعها ، وجمعهم بالواو والنون جمع العقلاء بناء على زعم المشركين أنهم ينفعون ويضرون ويعقلون)[2].

وجملة﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾أي اتخذوا الآلهة طمعاً في أن يتقوّوا بهم ويتعضدوا بمكانهم،والأمر على عكس ما قدّروا حيث هم جند لآلهتهم معدّون﴿مُحْضَرُونَ﴾ يخدمونهم ويذبون عنهم ، ويغضبون لهم ؛ والآلهة

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/٦٧ــ ٦٩ .

(٢) فتح القدير للشوكاني ٤/٣٨٢ .

لا استطاعة بهم ولا قدرة على النصر ... والأمر على خلاف ما توهموا ، حيث هم يوم القيامة جند معدّون لهم محضرون لعذابهم ؛ لأنهم يجعلون وقوداً للنار[1] .

قال تعالى ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ* أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ* وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾يس (٧٦ : ٧٨) .

قوله : ﴿ فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ إشارة إلى الرسالة لأن الخطاب معه بما يوجب تسلية قلبه دليل اجتبائه واختياره إياه[2] .

وجملة ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فصلت عما قبلها لأنها: (تعليل لما تقدم من النهي ، فإن علمه سبحانه بما يظهرون ويضمرون مستلزم للمجازاة لهم بذلك، وأن جميع ما صدر منهم لا يعزب عنه سواء كان خافياً أو بادياً سراً أو جهراً مظهراً أو مضمراً ، وتقديم السر على الجهر للمبالغة في شمول علمه لجميع المعلومات[3] .

وبين قوله تعالى ﴿ يُسِرُّونَ . . . يُعْلِنُونَ﴾ طباق والغرض منه إحاطته ـ سبحانه وتعالى ـ بجميع شئون خلقه .

وجملة ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان إقامة الحجة على من أنكر البعث وللتعجيب من جهله ، فإن مشاهدة خلقهم في أنفسهم على هذه الصفة من البداية إلى النهاية مستلزمة للاعتراف بقدرة القادر الحكيم على ما هو دون ذلك من بعث الأجسام

---

(١) الكشاف ٣/٢٩٣ .

(٢) تفسير الرازي ٢٦/١٠٧ .

(٣) فتح القدير ٤/٣٨٢ ، ٣٨٣ .

وردها كما كانت ، والإنسان المذكور في الآية المراد به جنس الإنسان كما في قوله : ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ مريم (٦٧) ولا وجه للتخصيص بإنسان معين[١] .

والاستفهام هنا خرج عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازي مستفاد من السياق وهو الإنكار .

﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ هذه الجملة معطوفة على الجملة المنفية قبلها داخله معها في حيز الإنكار المفهوم من الاستفهام ، وإذا هى الفجائية : أي لم ير الإنسان أنا خلقناه من أضعف الأشياء ، ففجأ خصومتنا في أمر قد قامت فيه عليه حجج الله وبراهينه ، والخصيم الشديد الخصومة الكثير الجدال ، ومعنى المبين : المظهر لما يقوله الموضح له بقوة عارضته وطلاقة لسانه[٢] .

وقال الواحدي : هذا تعجب من جهله وإنكار عليه خصومته أي كيف لا يتفكر في بدء خلقه حتى يدع خصومته[٣] .

ثم أكد الإنكار عليه بقوله ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ في هذه الآية حسن البيان وهو إخراج المعنى في أحسن الصور الموضحة له ، وإيصاله بأقرب الطرق وأسهلها ، وقد تأتي العبارة عنه من طريق الإيجاز ، وقد تأتي من طريق الإطناب بحسب ما تقتضيه الحال ، وتتجلى هذه الصورة البديعة في قوله تعالى ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ فقد أتى بيان الكتاب العزيز في هذه الآية من الطريقتين

---

(١) فتح القدير ٤/٣٨٣ .

(٢) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة .

(٣) الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي ٣/٥٢٠ .

فكانت جامعة مانعة في الاحتجاج القطاع للخصم[1] .

وقد ذكر الزمخشرى تفسيراً بليغاً صدد هذه الآيات قال : (قبح الله عزّ وجلّ إنكارهم البعث تقبيحاً لا ترى أعجب منه وأبلغ ، ودلّ على تمادي كفر الإنسان وإفراطه في جحود النعم وعقوق الأيادي ، وتوغله في الخسّة وتظغله في القحة ، حيث قرره بأن عنصره الذي خلقه منه هو أخسّ شيء وأمهنه ، وهو النطفة المذرة الخارجة من الإحليل الذي هو قناة النجاسة ، ثم عجب من حاله بأن يتصدّى مثله على مهانة أصله ودناءة أوّله لمخاصمة الجبار ، وشرر صفحته لمجادلته ، ويركب متن الباطل ويلج ، ويمحك ويقول : من يقدر على إحياء الميت بعد ما رمت عظامه ، ثم يكون خصامه في ألزم وصف له وألصقه به ، وهو كونه منشأ من موات ، وهو ينكر إنشاءه من موات ، وهي المكابرة التي لا مطمح وراءها)[2] .

وجملة ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ استئناف جواباً عن سؤال مقدر كأنه قيل ما هذا المثل الذي ضربه ؟ فقيل قال : من يحي العظام وهى رميم ، وهذا الاستفهام للإنكار لأنه قاس قدرة الله على قدرة العبد ، فأنكر أن الله يحي العظام البالية حيث لم يكن ذلك في مقدور البشر[3]، فالفصل في هذه الآية لشبه كمال الاتصال .

ثم أجاب الله سبحانه وتعالى عن الضارب لهذا المثل[4]، فقال :﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ يس (٧٩) .

---

(١) إعراب القرآن وبيانه ٣٥٨/٢٣ ، ٣٥٩ .

(٢) الكشاف للزمخشرى ٢٩٣/٣ ط : دار المعرفة .

(٣) فتح القدير ٣٨٣/٤ .

(٤) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة.

هذه الآية رد على مشركي قريش حين أثاروا الشبهات حول إعادة الخلق وتكوينه فهي استدلال بالخلقة الأولى على البعث والله يعلم كيف يخلق كل شئ فلا يصعب عليه بعث الأجساد بعد فنائها[1] ، ولذلك وردت هذه الآية مفصولة عما قبلها لشدة الارتباط بينهما .

ثم عاد سبحانه وتعالى إلى تقرير ما تقدم من دفع استبعادهم وإبطال إنكارهم فقال﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ يس (٨٠) .

فنبه سبحانه على وحدانيته ودل على قدرته على إحياء الموات بما يشاهدونه من إخراج النار المحرقة من العود الندي الرطب ، وذلك أن الشجر المعروف بالمرخ ، والشجر المعروف بالعفار إذا قطع منهما عودان وضرب أحدهما على الآخر انقدحت منهما النار وهما أخضران[2]، بإذن الله تعالى .

قال الإمام الرازي " ووجهه هو أن الإنسان مشتمل على جسم يحس به وحياة سارية فيه ، وهي كحرارة جارية فيه فإن استبعدتم وجود حرارة وحياة فيه فلا تستبعدوه ، فإن النار في الشجر الأخضر الذي يقطر منه الماء أعجب وأغرب وأنتم تحضرون حيث منه توقدون ، وإن استبعدتم خلق جسمه فخلق السماوات والأرض أكبر من خلق أنفسكم فلا تستبعدوه فإن الله خلق السماوات والأرض فبان لطف قوله تعالى:﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الاخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْه تُوقِدُونَ﴾ "[3] .

ثم ذكر سبحانه وتعالى ما هو أعظم من خلق الإنسان فقال:﴿ أَوَلَيْسَ

---

(١) التسهيل لابن جزي الكلبي ١٦٧/٣ .

(٢) فتح القدير ٣٨٣/٤ .

(٣) تفسير الرازي ١١٠/٢٦ .

الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ يس (٨١).

في الآية استفهام تقرير: والمعنى من قدر على ذلك العظيم قدر على هذا اليسير[١]، ثم أجاب هذا الاستفهام فقال ﴿ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ .

فبعد أن رد الله سبحانه وتعالى على المشركين الذين أنكروا إنشاء العظام وإحياءها بعد موتها ، انتقل إلى الاستدلال بخلق السماوات والأرض وهما أعظم شأناً وخلقاً من خلق الإنسان والقدرة على إحيائه وبعثه مرة أخرى لذلك جاءت صيغة المبالغة في هذه الآية لتتناسب مع هذا المقام ، والمبالغة هي أن يذكر المتكلم وصفاً يزيد فيه حتى يكون أبلغ في المعنى الذي قصده وهي على جزئين[٢] .

الأول : مبالغة في الوصف بأن يخرج إلى حد الاستحالة ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ الأعراف آية (٤٠) .

الثاني : مبالغة في الصيغة من صيغ المبالغة فعلان كالرحمن ، وفعيل كالرحيم ، وفعال كالتواب والغفار... ، وفعول كغفور ... وغيرها من الصيغ .

وقد وردت على الضرب الثاني في قوله تعالى ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ يس (٨١) .

ثم ذكر سبحانه ما يدل على كمال قدرته على الخلق والإعادة فقال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ* فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يس (٧٢، ٨٣) .

---

(١) زاد المسير ٤٢/٧ .

(٢) معترك الأقران ٣١٣/١ وجوهر البلاغة ٣٨٠ .

في قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ استعارة تمثيلية فهو تمثيل لتأثير قدرته في مراده بأمر المطاع للمطيع أي كما يمتثل المطيع لأمر المطاع ، ويأتي بالمأمور به بسرعة كذلك يكون ما أراد الله تكوينه إذا تعلق بقدرته وإرادته بلا ريث وتوقف ، فالممثل الشئ المكون ، والممثل به المأمور المطيع ، والتمثيل ﴿ كُنْ فَيَكُونُ﴾ لأنه هو اللفظ المستعار لذلك المعنى[1] .

وقال ابن المجيد : أقول الأصح أن المستعار لفظ ﴿كُنْ﴾ فقط شبه الصورة الحاصلة من تعلق قدرة الله بإيجاد شر وسرعة حصوله عقيبه بلا ريث بالصورة الحاصلة من أمر الآمر المطاع للمطيع وسرعة إتيانه بالمأمور به بلا وقف .

فاستعمل في الصورة الأولى ما هو موضوع للصورة الثانية وهو لفظ ﴿ كُنْ﴾ على وجه الاستعارة التمثيلية[2] .

وفي قوله ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تقديم ﴿إِلَيْهِ﴾ على ﴿تُرْجَعُونَ﴾ للاهتمام ورعاية الفاصلة لأنهم لم يكونوا يزعمون أن ثمة رجعة إلى غيره ، ولكنهم ينكرون المعاد من أصله[3] .

كما أن هناك التقديم في قوله ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يفيد القصر ، حيث قصر صفة البعث على الموصوف وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، والمعنى أي ترجعون إليه لا إلى غيره وذلك في الدار الآخرة بعد البعث .

ومن الإعجاز البلاغي الفواصل : مجموع فواصل آيات هذه السورة

---

(١) حاشية القونوي على البيضاوى ١٦٠ / ٢٠٣ ، وصفوة التفاسير ٢٣/٣ .

(٢) حاشية ابن التمجيد على البيضاوي ٢٠٣/١٦ .

(٣) التحرير والتنوير٢٣ / ٨٠ .

الكريمة الميم والنون " وهما من الحروف التي تجمع بين الشدة والرخاوة ، وهما من الحروف المذلقة التي تمتزج بصوت الغنة ؛ لأن الغنة صوت من أصوات الخيشوم ، والخشيوم مركب الغار الأعلى وإليه يسمو هذا الصوت، وتخرج هذه الحروف من طرف اللسان وهي من أخف الحروف وأحسنها امتزاجاً بغيرها "[1] .

ويقول الرافعي :

" وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى ، وهى متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب ، وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها ، أو بالمد وهو كذلك طبيعي في القرآن ... وهذه هي طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة ، وأثرها طبيعي في كل نفس ، فهي تشبه في القرآن الكريم صوت إعجازه الذي يخاطب به كل نفس تفهمه ، وكل نفس لا تفهمه "[2] .

وتأمل جمال الفاصلة في قوله تعالى ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ*بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ يس (٢٦، ٢٧) .

فإن ذكر الجنة مهد لفاصلتها فوردت الفاصلة مناسبة لما تقدمها من الكلام مستقرة في مكانها مطمئنة في قرارها غير نافرة ولا قلقة يتعلق معناها بمعنى الآية تعلقاً تاماً بحيث لو طرحت لاختل المعنى ، واضطرب الفهم فهي تؤدي جزءاً من معنى الآية يختل وينقص بنقصانها .

وإن كان هذا المثال على اتحاد الفاصلة فهناك تغاير في مبنى

---

(١) جمهرة اللغة لابن دريد أبي بكر محمد بن الحسن الأزدى ١/٦، ٧، ط: دار صادر بيروت.
(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، للرافعى ٢١٠ .

بعض الفواصل الذي هو خاصية من خصائص نظم القرآن الكريم ، وتأتي هذه الخاصية تنشيطاً للسامع والقارئ وللملائمة بين الفاصلة وما سبقها من الكلام المتقدم عليها وليس لمجرد الحلية اللفظية وتأمل قوله تعالى ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ * لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ * سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴾ يس (٥٥ ،٥٨) .

نلاحظ أن هذه الآيات تحدثت عن نعيم أهل الجنة وقد ختمت فواصل هذه الآيات بالنون ولكن تغيرت هذه الفاصلة من النون إلى الميم في قوله تعالى ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴾ لأن بعد هذه النعم جاءهم الله ــ سبحانه وتعالى ــ بأكمل الأشياء وأعظمها وهو آخرها الذي لا شئ فوقه فقال ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴾ وهذا القول يستدعي لفت الانتباه للعطاء الإلهي ؛ ولذلك تغيرت الفاصلة لأن منى أهل الجنة أن يسلم الله ــ سبحانه وتعالى ــ عليهم والمتتبع لآيات هذه السورة الكريمة يرى أن الآيات قد كمل معناها بالفاصلة وأن الفاصلة قد قامت بأداء الغرض المراد منها ، وأنها كانت مستقرة في مكانها ومطمئنة في قرارها كما هو الحال في جميع سورة القرآن الكريم.

الخاتمة

الحمد لله الذي بحمده ونعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم . وبعد هذه الرحلة المباركة مع هذه السورة العظيمة والكثيرة الفوائد يتبين لنا :

١) أن القرآن الكريم معين لا ينضب من المسائل البلاغية .

٢) أن تحليل الآيات ودراستها وبيان ما اشتملت عليه من مصطلحات بلاغية أمر مهم جدا ؛ لأنه يوضح الصورة كاملة ، بخلاف الفصل بين معاني الآيات والمصطلحات البلاغية ، فإنه يفضي إلى الاقتضاب ، وذهاب روعة الإعجاز البلاغي .

٣) اشتملت السورة الكريمة على جل علوم البلاغة .

أ ـ فمن علم المعاني: حوت الخبر ، والتعريف ، والتنكير ، والتقديم والتأخير ، والالتفات ، والقصر ، والإنشاء ، والوصل ، والفصل ، والإيجاز والإطناب .

ب ـ ومن علم البيان : تضمنت الصورة البيانية التي أظهرت الصورة المجردة بالصورة الحسية من التشبيه ، والمجاز ، والكناية ، والتعريض .

ج ـ ومن علم البديع تناولت :

المحسنات المعنوية ومنها : الطباق ، والمقابلة ، والمبالغة ، وحسن التقسيم ، المحسنات اللفظية ومنها : (الجناس) ورد العجز على الصدر (التوشيح) ، والطرد والعكس (القلب).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المراجع

١) **الإتقان في علوم القرآن** للسيوطي، المكتبة التوفيقية ـ القاهرة، مصر.

٢) **أسرار البلاغة** للإمام عبد القاهر الجرجاني ـ تحقيق محمد الفاضلي، ط: المكتبة العصرية. صيدا ـ بيروت ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

٣) **أسرار ترتيب القرآن** للسيوطي. ط: دار الفضيلة للنشر والتوزيع ـ القاهرة.

٤) **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم** لأبي السعود ط: دار الكتب العلمية ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م، ط: أولى بيروت.

٥) **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن** للشنقيطي، بيروت، لبنان.

٦) **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية** للرافعي، ط: دار الفكر العربي ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٧) **إعراب القرآن وبيانه** للأستاذ محيي الدين الدرويش ط: الإرشاد الجامعية ـ حمص سوريا.

٨) **أنوار التنزيل وأسرار التأويل** للبيضاوي، ط: الكتب العلمية ط: الأولى بيروت ـ لبنان ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٩) **الإيضاح** للخطيب القزويني، تحقيق الدكتور: محمد عبد الحميد هنداوي، مؤسسة المختار ـ القاهرة.

١٠) **البحر المحيط** ـ لأبن حيان، مطبعة السعادة ط: أولى مصر ١٣٢٨هـ

١١) **بغية الإيضاح** لعبد المتعال الصعيدي، مكتبة ومطبعة صبيح.

١٢) **البرهان في علوم القرآن** للزركشي تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الجيل بيروت، لبنان .

١٣) **بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز** للفيروز آبادي ط : لجنة إحياء التراث الإسلامي .

١٤) **البلد الحرام فضائل وأحكام** إعداد كلية الدعوة جامعة أم القرى ، ط: أولى السعودية ١٤٢٤هـ .

١٥) **البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري** للدكتور / محمد حسنين أبو موسى ، ط : دار الفكر العربي .

١٦) **تاج العروس** للزبيدي ط : أولى الجمالية مصر ١٣٠٦هـ .

١٧) **التحرير والتنوير** للأستاذ الطاهر بن عاشور الدار التونسية :تونس .

١٨) **التسهيل** لابن جزي الكلبي . مطبعة مصطفى محمد ط : أولى مصر ١٣٥٥هـ .

١٩) **تفسير زاد المسير** للإمام أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي ـ المكتب الإسلامي ط: أولى دمشق .

٢٠) **تفسير القرآن العظيم** لابن كثير ، ط: الأولى لبنان ١٤١٩هـ ، ١٩٩٨م.

٢١) **التفسير الكبير** للفخر الرازى ط: دار الفكر الأولى : بيروت ـ لبنان ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م .

٢٢) **تفسير المراغي** للأستاذ / أحمد مصطفى المراغي ، مطبعة البابى الحلبي .

٢٣) **تلخيص البيان في مجازات القرآن** للشريف الرضي ط: عالم الكتب ، بيروت ـ لبنان .

٢٤) **تنبيه الوسنان إلى علم البيان** للدكتور / عبد الرزاق السعدي ، دار الأنبار للطباعة والنشر ، العراق ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م .

٢٥) **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان .

٢٦) **الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه** / تأليف محمود صافي ـ دار الرشيد . ط : الرابعة دمشق ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م .

٢٧) **الجغرافيا الطبيعية المعاصرة** تأليف د/عبد الفتاح صديق والدكتورة / دلال زريقات ط: دار الناشر الدولي .

٢٨) **جمهرة اللغة** لابن دريد أبي بكر محمد بن الحسن الأزدي ط: دار صادر ، بيروت .

٢٩) **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع** للهاشمي ، ط: الثانية عشرة ١٣٧٩هـ ـ ١٩٦٠م .

٣٠) **حاشية ابن التمجيد** لصلح الدين مطصفى بن إبراهيم الرومي الحنفي تصحيح عبد الله محمود . دار الكتب العلمية ط: أولى بيروت ـ لبنان .

٣١) **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي** ط: دار صادر بيروت .

٣٢) **حاشية القونوي** لعصام الدين إسماعيل بن محمد الحنفي على تفسير البيضاوي . دار الكتب العلمية . ط : أولى بيروت لبنان .

٣٣) **دلائل الإعجاز** ، تحقيق محمود محمد شاكر . ط: مكتبة الخانجي بالقاهرة .

٣٤) **الدر المنثور في التفسير بالمأثور** للسيوطي . ط: دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان .

٣٥) **الدر المصون** للسمين الحلبي . ط: دار الكتب العلمية ـ بيروت

لبنان.

٣٦) **ديوان طرفة بن العبد**، فوزي عطوى. ط: بيروت ـ لبنان ١٩٦٩م.

٣٧) **ديوان عمرو بن كلثوم**. ط: دار صادر بيروت.

٣٨) **ديوان المتنبى**، فهرسه وشرحه / عبود أحمد الخزرجى ـ المكتبة العالمية.

٣٩) **روح المعاني للآلوسى**. ط: دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٤٠) **سنن الترمذي** للإمام الحافظ عيسى محمد بن عيسى الترمذي ط: دار الفكر العربي بيروت.

٤١) **شروح التلخيص** للخطيب وآخرون، دار السرور، بيروت.

٤٢) **صحيح البخاري**، لمحمد إسماعيل أبي عبد الله البخاري، تحقيق د / مصطفى ديب ط: ثالثة بيروت.

٤٣) **صفوة البيان لمعاني القرآن**، للشيخ حسنين محمد مخلوف، ط: دولة الإمارات المتحدة. ط: الثالثة.

٤٤) **صفوة التفاسير** لمحمد على الصابوني. دار الفكر للطباعة والنشر. ط: بيروت ـ لبنان ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٤٥) **العين** لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي ط: أولى دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان.

٤٦) **فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية للشوكاني**، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة.

٤٧) **الفردوس بمأثور الخطاب** للهمذاني تحقيق: بسيوني زغلول. ط: دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

٤٨) **الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن** لابن القيم الجوزية . ط: المتنبى ـ القاهرة .

٤٩) **في ظلال القرآن** لسيد قطب . ط: دار إحياء التراث العربي . ط: السابعة بيروت ـ لبنان .

٥٠) **الكشاف** للزمخشرى وبهامشه الكافي الشافي لابن حجر العسقلاني . ط: دار المعرفة .

٥١) **اللباب في علوم الكتاب** للدمشقي ، تحقيق الشيخ / عادل أحمد والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية . ط: الأولى بيروت لبنان.

٥٢) لسان العرب لابن منظور . ط: دار إحياء التراث العربي . ط: الثالثة : بيروت ـ لبنان ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م .

٥٣) **المثل السائر** لابن الأثير تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد مطبعة البابي الحلبى ـ مصر .

٥٤) . **محاسن التأويل** للقاسمى ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، دار إحياء الكتب العربية ، ط : الأولى .

٥٥) **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** لابن عطية الأندلسي ، تحقيق عبد الله إبراهيم الأنصارى ، والسيد / عبد العال السيد إبراهيم ، الدوحة ـ قطر .

٥٦) **مختار الصحاح** لاسماعيل بن حماد الجوهرى ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطا الله . ط: دار العلم للملايين ، ط: الثالثة : بيروت ـ لبنان .

٥٧) **مدارك التنزيل وحقائق التأويل** للنسفي ، ط: دار الكتاب العربي ط: أولى بيروت ـ لبنان .

٥٨) **معالم التنزيل** للبغوى ، طبع على هامش الخازن ، مطبعة مصطفى محمد ـ مصر .

٥٩) **معاني القرآن** للفراء عالم الكتب ، ط: الثانية ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م .

٦٠) **معترك الأقران في إعجاز القرآن** للسيوطي ، ط: دار الكتب العلمية ، ط: أولى بيروت ـ لبنان .

٦١) **معجم الطبراني الكبير** للحافظ أبى القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ، تحقيق : حمدي بن عبد المجيد السلفي مطبعة الزهراء الحديثة ، ط: الثانية الموصل١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .

٦٢) **معجم مقاييس اللغة** لأبى الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ط: دار الفكر للطباعة والنشر.

٦٣) **المعجم الوسيط** لمجموعة من المؤلفين ، مجمع اللغة العربية ، دار الدعوة استانبول ـ تركيا .

٦٤) **مفتاح العلوم** للسكاكي ، ط: أولى مصطفى البابي الحلبي ، مصر ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م .

٦٥) **مفردات غريب القرآن** للأصفهاني ، ط : دار المعرفة بيروت ـ لبنان .

٦٦) **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور** للإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم البقاعي ، ط: أولى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، قطر ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٨م .

٦٧) **الوسيط في تفسير القرآن** للواحدي النيسابوري ، ط: دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م .